نادي القصة

"النادي الثقافي أبو القاسم الشابي"

قصص

دورية تصدر كل ثلاثة أشهر

5



الدار التونسية للنشر

1967

ـ اخبار القصة ـ

- يعتزم نادي القصة اصدار سلسلة من الكتب القصصية ابتداء من سنة 1968 وستكون الحلقة الاولى هى **ليالى المطر** بقلم حسن نصر عضو نادى القصة ٠

- احتفلت الاوساط الأدبية فى تونس بالاديب الليبى السيد عبد الله القويرى بمناسبة صدور مجموعته القصصية **الزيت والتمر** وقد صدرت المجموعة عن دار المغرب العربى التى يديرها السيد أبو القاسم كرو ٠

- **التوت المر** قصة جديدة للسيد محمد العروسى المطوى ٠ صدرت عن الدار التونسية للنشر ٠

- **المنبت** عنوان القصة الجديدة التى صدرت للسيد عبد المجيد عطية ٠ نشرت القصة الشركة التونسية للتوزيع ٠

نادي القصّة

"النادي الثقافي أبو القاسم الشابي"

قصص

دوريّة تصدر كل ثلاثة أشهر

5

اكتوبر 1967



الدّار التونسيّة للنّشر

1967

تصــــديــر

بهذا العدد الخـامس تنهى مجلة قصص مجلدها الاول • واذا كان العدد الاول صدر سنة 1966 فقد روعى أن يكون ضمن المجلد الاول لسنة 1967 حتى تكون مجلداتها على نسق • ويكون العدد السادس الذى يصدر فى مستهل سنة 1968 بداية المجلد الثانى •

واذا كان هذا الاعتبار الشكلى استحق لفت النظر فان نادى القصة يشعر بأنه بـدأ يشق طريقــه نحو تحقيــق ما كان يهدف اليه فى جلساته الاولى من ضرورة احلال القصة التونسية المعاصرة محلها الذى يجب أن تكون فيه • وأن يجد الدارسون للقصة التونسية مرجعا خصبا يعودون اليه ، ويتعرفون فيه على مختلف الاتجاهات ومتنــوع الاساليب للقصة التونسية ، وهو ما ســارت عليه مجلة « قصص » منذ صدورها •

ولا يعنى هذا أن القصة التونسية لم تكن موجودة من قبل • بل إن هذه المجلة قدمت دراسات عن القصة التونسية وأبانت مـراحل بروزها خلال النصف الاول من القرن العشـرين بالاضـافة الى ما أعادت نشره من قصص صدرت فى العقد الاول من هذا القرن إحياء لها وتمكينـا للـدارسين والبـاحثين ، وربطا للصلـة بين أجيـال القصاصين التونسيين ، وهو ما تنوى الاستمرار فيه ومواصلته •

كما أنها لا تنسى ــ فى هذا الصدد ــ أن تنوه ببعض المجلات التى كان لها ضلع فى نشر القصــة التونسية من أمثـال العـالم الادبى والمباحث ، والندوة ، وخاصة مجلة « الفكر » التى ما تزال منذ أكثر من عشر سنوات دؤوبة على ابراز هذا الانتاج ، والتى نبارك لها هذا الدأب ، ونرجو لها ــ مخلصين ــ ازدياد المثابرة واطراد النجاح فى نضـالها الذى لم ينقطـع منذ أن صــدر أول عـدد لهـا فى شهـر أكتوبر 1955 •

لقد كان أعضاء « نادى القصة » ـ رغم صدق العزم ـ يخشون الفشل وقلة المثابرة فى خطوتهم الاولى المتمثلة فى تأسيس النادى وندواته ومداولاته الاسبوعية • ولكن استمرار الخطوة الاولى ثابتة متزنة أغراهم بالاقدام على خطوة ثانية هى إصدار مجلة تعنى بالقصة وشؤونها وتنشر ما يتلى فى هذا النادى من قصص وبحوث ودراسات عن القصة •

واليوم ـ بعد أن لمسوا نجاح خطوتهم الثانية ـ يسعدهم إعـلام القراء بأنهم عازمون على خطوة ثالثة تتمثل فى إصـدار سلسلة من الكتب القصصية تصدر منها عشر حلقـات كل سنة على الاقـل • وقد تم الاتفاق بين النادى والدار التونسية للنشر على إصدار هذه السلسلة التى ستتلاقى بواكيرها مع القـراء فى مطلـع سنة 1968 القـادم •

ولا يسع نادى القصة إلا أن يقدم وافـر شكـره للدار التونسية للنشر على ما وجده عندها من تشجيع متواصل ، وما ساد علاقاته معها من انسجام وروح تعاون • كما لا يسعه إلا شكـر قـراء مجلة « قصص » على ما لقيه عندهم من تشجيع وتجاوب وإقبال ، مؤملا أن يكون عند حسن ظنهم ، محافظا على عهده ، مستمرا فى نشاطه ، دؤوبا على إنتاجه • والله ولى التوفيق •

« قصـص »

التجربة الثانية

بقلم : محمد العرسي المطوي

كان وجهه يطفح مسرّةً عندما قال يخاطبها :
— خطّي رديء كما تلاحظين.
فقالت تجيبه في اطمئنان :
— لكنّه جميل .
وأردف مبتسما :
— هذا من لطفك ، يا آنستي .
— لا مجال للطّف ... أنا أستطيع قراءته بسهولة
— هل نجري تجربة ؟
— لا مانع .
وأمسكت بالورقة اللازوردية وجعلت تقرأ :

« ... لم أكن على موعد مع أحد ... كنت أمشي على الرّصيف لا أفكّر في شيء ... المشيُ في ردهات شارع الحبيب بورقيبة أصبحتُ أتمنّاه ... هل هو معاد الشبيبة ؟ عهدَها كنّا نراهم يتخاصرون فيحزّ في أنفسنا الحرمان ... حرمان ما يشعرون به من عزّة وحرّية ... الشعور بالغربة في الموطن من أشد العوامل حزّا في النّفس ... هل من أجل ذلك اعتلجت فيّ عزّة التمشّي

تحت أسطار الشجر في هذا الشارع الواسع ... لكن المشاغل والسنّ والاعمال ... هل هو نوع آخر من الحرمان ؟...

وطفقت أقارن بين عهود وأوضاع ... وتماديت أمشي على الرّصيف ... وانساقت خطاي إلى « الكوليزي » ... وانداح نظري يجوب المقهى !... رأيتها جالسة وحدها تتصفّح كتابا ... هل كانت تطالع الكتاب أم كان تقيتَّها لتفحص المارّة ؟... كانت سمراء قمحية ، شعرها منسدل في إهمال ... على الطّاولة سِفْط أبيض وعلبة سڤائر ... « كرافن إي » وحقّة وقيد .

وجدتُ نفسي منقادا إلى الجلوس قبالتَها ، حِذوَ طاولة أخرى... ومضت فترة كنّا فيها نتحدّث ... نتحدّث بعيوننا ... عشرات الاشارات والغمزات ... لم تكن منزلتي في المجتمع تسمح لي بمحادثتها أو الجلوس معها أمام النّاس ... ظللتُ أبحث عن حيلة ، بينما كنت أتصفّح مجلة فرنسية ، نسيت اسمها الآن ... ووجدت الحلّ !... في الصفحة العشرين من المجلّة عنوان غليظ بالحبر الاحمر « ... نحن على موعد ... » فأدرت الصفحة حتّى ترى العنوان واضحا . ثم خزرت إليها ، فاذا ملامحها توافق على ما جاء في العنوان ... المشكل متى نلتقي ؟... متى يكون الموعد ؟... ليس سهلاً حصولُ هذا .

وجاء النّادِلُ يغيِّر منفضة السڤائر ... امتلات المنفضة في عشرين دقيقة !... كم سيڤارة تناولت ؟... كلّ مافي المنفضة أنصاف وثلاثة أرباع .

... الشهرة حرمان !...

لماذا لا أتقدم إليها وأحدّد معها موعدا ؟... بدا لي أن كلّ مَن في المقهى يعرفني !... ينظر إليّ باستغراب ... فلان ، الشخصية اللاّمعة ، المدير المسؤول !... كيف يجلس في هذه السّاعة بالمقهى ؟ مقهى « الرّوتُونْدْ » حرفاؤه في الصّباح من العاطلين أو المتسكّعين ... هل هي من ذلك الصّنف ؟... ألم تشبع مِمّا تشتهي !...

ونظرت إليها محتدًّا فأدارت عينيها إلى اليسار صَوْبَ صالون الحلاقة ...

هل فهمتُ ما تعني ؟...

لعلّ لها موعدا لَما يَحِنْ ، ففضّلت الانتظار في المقهى ... هل تطلب منّي الذّهاب إلى الصّالون ؟... الصالون مشترك بين الرّجال والنّساء ... شخصيات كبيرة تأتي هنا للتجميل وتقليم الاظافر .

ربّما كان فهمي مخطئا !

سأكتب رقم الهاتف ، حتّى إذا التحقت بي سلّمتها الرّقم ... رقم الهاتف ... الرّقم الخاص أسلم .

انتصبتُ واقفا بعد أن رأتني أكتب شيئا على قُصاصة صغيرة ... اتجهتُ صوب الصّالون ودخلت حيث يتزيّن الرّجال ... طلبت موعدا ثمّ انسللت ... وفي مدخل الصّالون التقيت بها فسلّمتها حقّة الوقيد التى وضعت فيها القُصاصة دون أن يكلّم أحدنا الآخر ... »

انتهت من قراءة الورقة اللازوردية الاولى . كان وجهها محمرًّا خَجَلا وَوَرْطةً ...

هل تتابع القراءة ؟... إنها تجربة ! أراد أن يختبرها بها ... في إمكانها أن تقول له : إنني أستطيع قراءة الخطّ بسهولة فلا فائدة في المواصلة .

لكنّها طوت الورقة الاولى لتقرأ له الثّانيةَ . إلاّ أنها لم تستطع ... غار صوتها إلى الدّاخل . فحاول هو إنقاذ الموقف وقال مبتسما :

ـ هذه مذكرات شخصية أحببت أن ترقنيها فلا يطّلع عليها غيرك ... طبعا إذا لم يكن لديك مانع .

ونظر إليها بعين ملتهبة ، فأسدلت طرفها الأهدب ، واحمرّت وجنتاها ، وتندّى جبينها . إلاّ أنها ربطت جأشها . وقالت في خجل :

ـ كنتُ أحسب أنّ العمل يخصُّ الشركة .

ـ وهو كذلك ... أو تحسبين أنّ هذا النّوع من الكتابة سيكون عملك اليوميّ ... أبدًا ... إنّما هي فترات ... إنّ النموذج الذي تلوتِه الآن من مذكراتي لا يعني أن المذكرات جاهزة ... إنها بداية قصّة ربّما تكون طويلة النَّفس .

« ... بداية قصّة !... مَنْ بطلها ؟ ... هل في القصّة ضحيّة ؟... آه يا أمّي ... ماذا أقول ... هداك الله ... »

وأدار مفاتيح السيّارة في يده بينما ارتفعت عيناه إلى السّقف . وأخرج علبوب دخان كاد يغطي النّجفة المتدلّية . وهمّ بأن يقدّم ليها سيقارة . ثم تراجع .

كانت تراقب كلّ حركة منه ... كلّ نظرة ... كلّ التفاتة ... لم تفتها حتّى إدارة الخاتم باصبعه .

وساد الصّمت لولا رنّة خافتة من جرس الهاتف :

« ... آلو ... مساء الخير ... عفوا !... عفوا ... صباح الخير.... لا ... أبدا ... نمت الساعة الواحدة .. نعم جاؤوا كلّهم إلاّ حمّادي ... غريب !... ألم تسمع ؟... وصل منذ يومين . كان في فيانّا ... طبعا . لا ... إنه لا يعدم ما يصطاد ... يقول : إنها شيء مدهش ... ممكن في اللّيلة القادمة ... اتفقنا ... إلى اللّقاء ... بالسّلامة ... »

ووضع السمّاعة متأفّفا :

– لا مؤاخذة ... إزعاج ... حقّا إن الهاتف مزعج ، ولو أنّه يقضي الكثير من الحاجات ...

– ...

– أنامضطر إلى استعمال هاتفي الخاص ؛ لانني في أحيان كثيرة لا أحبّ الوسيط .

وانتظر منها أن تعقّب على كلامه .

« ... يريد أن يجرّني إلى حديث خاص ... ماذا وراء كلمة « حمّادي والصّيد الذى جاء به من فيانّا » !... يجب أن أقطع به الحبل ... ما خلقتُ لهذا ... إلحاحُك ، أنت يا أمّي ... مَنْ تنافسين ؟... بمن سنلتحق ؟... هذه التجربة الثانية ... ماذا ستكون النّتيجة ... »

وزاده صمتها إلحاحـا في الانتظار . لكنّها ظلّت كما هي : الورقات اللازوردية فوق ركبتهيها ... عيناها تدّعيان القراءة ... رأسها لا يتحرّك ، لا يتابع مسيرة السُّطور .

وتشاغل هو بالنّظر في بعض الملفّات ... نقل جانبا منها إلى يساره ... قرّب منه المَقْلَمَة ، ثم أعادها إلى حيث كانت ... قتَل سيقارة في المنفضة ... أشعل ثانيةً ، أخرج هذه المرّةَ ولاّعة ذهبية اللّون ... أخيرا تكلّف الابتسام وقال لها :

ـ أظنّ أنّ التّجربة كافية ، يا آنستي ... مستوى طيّب ... يمكن أن تشتغلي معنا منذ الغد ... لكن المشكل ! (وسكت لحظة) المشكل الذى لم أجدْ له حلاّ إلى الآن هو ازدحام المستخدمين في الشركة ... كلّ الحُجُرات مشحونة ... مجلس الادارة لم يوافق حتّى الآن على الانتقال إلى عمارة أكبر ... لكن بالنّسبة لك الامر سهل ... هذا الباب !...

وأشار إلى باب صغير على يساره ، فانساقت هي تنظر إلى الباب تتأمّله ، بينما يستمرّ هو في الحديث :

ـ حُجرة شاغرة ... بها مكتب وبعض الاثاث ... العيب الوحيد أن الدّخول إليها لا يكون إلاّ من مكتبي الخاص ... أظنّ لا حرج في ذلك .

وقبل أن ينتظر منها إجابةً تنحّى عن كرسيّه الوثير ، وتقدّم منها :

ـ ألا تتفضّلين بالاطّلاع على المكتب .

— لا مانع

وأسرع يفتح الباب ويسبقها بالدّخول .

كلّ شيء على غاية من الدقّة وحسن الذّوق : مكتب صغير من خشب الابنوس ... كرسيّ ظريف من نفس الخشب و اللّون ... راقنة جديدة من نوع « أوليفتي » منتصبة فوق المكتب كأنّها لم تستعمل من قبل ، تقابلها آلة هاتف كبيرة ذات أزرار ... بالجانب الآخر من الحجرة متّكآن وأريكة كبيرة ... منضدة عليها أُصٌّ من الزهور ، وطقم سقائر مُطَعَّم بالعاج ، ومنفضة كريسْتال بديعة الشكل والتّزويق ... مشجب متنقل ينتصب واقفا قُرْبَ الباب كأنّه شخص ثالث يراقب ما يجري في الحجرة .

وظلّ يطوف بأرجاء المكتب صامتا . وظلت تطوف وراءه متأملة ، مستفهمة :

« ... مَنَ اشتغل في هذا المكتب قبلَ لآن ؟... صورة زيتية جميلة !... وهذه ؟... مهارة صينية عجيبة !... عصفورتان فوق غصن مُزهر ... إلى أين يفتح هذا الشبّاك ؟... وهذا الباب الصّغير !... إنه أشبه بباب حمّام فوزية ... كان ذلك يوم شاركت في الاحتفال باحرازها الجزءَ الاول من شهادة البكالوريا ... كم بُذِل في طلاء هذه الجُدْران ، وتأثيث هذا المكتب ؟... جهاز عروس !... وتلك الاريكة !... هل هي من ذلك الصّنف الحديث الذي ينقلب إلى سرير ؟... »

ثم التفت إليها وهمّ بمحادثتها ، إلاّ أن جرس الهاتف دعاه ، فأسرع إلى مكتبه يتلقّف السمّاعة . وظلّت هي جامدة لا تطرف لها عين . ثم أسرعت بالالتحاق به قبل أن ينهي مكالمته ، ووقفت

بعيدة عنه ، فأشار إليها بالاقتراب والجلوس ، إلاّ أنها تظاهرت بأنَّها لم ترَ إشارته وأنَّها كانت مشغولة بالنَّظر إلى ساعتها . حتى إذا وضع السمَّاعة تقدّمت منه قائلة :

ــ أرجو ألاّ آخذ من وقتك أكثر .

ــ بالعكس . أناسعيد جدّا ... إنّ مهارتك في القراءة سرّتني كثيراً ... كان معلّم العربية يضايقني دائما بتنكيته على رداءة خطِّي .

والتاث عليها الأمر ، فلم تدر بماذا تجيبه . ثم تكلَّمت لا تبالي :

ــ عهد الطفولة شيء آخر .

فأحس بتجاوب أكثر معها . وقال طافحا مهتزّا :

ــ أنا جادّ في قولي ... بصراحة لم أجد لسانا تجرى فيه كلماتي كما وجدت الآن ... قد يشجعني هذا على مواصلة الكتابة .

« ... لا استمرار ... يجب أن أنصرف ... وذنب الكلب ... الوِسْكِي ... التُّويستْ ... السُّوريرين ... سلمى ... محمود ... الكازينو ... من جربة إلى الحمَّامات ... دار زرّوق ... مرسيدس ... صفر في السِّيرة ... موديلات جرمان ... عمارة الكوليزي ... بيعيها بِلِفْتَة ... »

ودون أن تشعر مدّت يدها تصافحه مودّعة ، وتعتذر عمَّا أخذته من وقته الثمين . وضغط كفَّها اللّدن فأحست بألم ولذّة ... لكنَّها سحبت يدها ... افتكَّتها منه .

وأمسكت بمقبض الباب، فكان أسرع منها إلى فتحه، وهو يقول لها :
ــ يمكن لك أن تشرعي من الغد في العمل .

وتراجع بسرعة ، وهو يلمح الحاجب الأشيب منتصبا قرب الباب يحمل حُزْمة من الملفّات .

وصكّت أذنيها لهجة الحاجب الآخر ... خيّل إليها أنه كان يرتطن . إلاّ أنّها سمعته يقول :

(... السيّد المدير في جلسة ... لا ... لا يقبل أحداً اليوم ... ارجعوا صباح الغد ... لكن بعد الساعة الحادية عشرة ... إنّه لا يرضى أن تبقوا منتظرين هكذا ... بدون طائل ...)

وفي الدهليز وقف شاب يحادث حاجبا آخر ، فلم تهتم ولم تلتفت . لكنّ أذنها سمعت أيضا :

(... اسمع، يا عمّي خليفة ... اللّي فيه طبّه ما تتخبّى... والله الذي لا ربّ سواه لآخذنّ حقّي اليوم أو غداً ...)

وعقّب الحاجب في لهجة مرتعشة :

(... اسمع يا ولدي . أنا في عمر جدّك ... الطلوع بسرعة يعقبه النّزول ... إذا كان أنت عندك ستة شهور ... أنا عندى ستّة أولاد ... جيل اليوم مَشْيُكُمْ بالصّاروخ ...)

* * *

نهج الحلفاوين يعجّ بالعربات والباعة ... يكاد يغصّ بالمارّة والشُّراة ...

كانت تحاول شقّ طريقها وسط الازدحام والجلَبة ... واستطاعت أن تجتاز النهج بصعوبة بعد أن ارتطمت مرتين بالعربات ... ثم عبرت ساحة الحلفاوين فأحست بشيء من الانفراج .

واستمـرّت تمشي إلى أن غاصت في زقاق ضيّق قذفت فيه المنازل ما في جوفها من أطفال فأضحى ملعب كرة ، وميدان سباق ...

وقعت الكرة على كتفها فلطّخت جانبا من الثّوب الذي حرصت أن يكون لائقا بمقابلة المدير ... وركلها طفل فازدادت غضبا ... صعد دمها فوّارا ... همّت بضرب زعيم الفريق فلم تدركه وقد سحب الكرة من بين رجليها .

وخرجت عجوز مترهّلة تُمَرْوِح على كانون يلتهب نَفْطُه ، وهي تهرّ على حفيدها :

« ... يا مقطوف القدّ ... خطفت من أختك كدمة الخبز ... تركتها كالمجنونة ... اليوم يومك يامكبوب السّعد !... »

وأطلّت جارتها من مصراع الباب النّصف مفتوح فتراجعت مذعورةً ... ثم عاد نصف وجهها يتثبّتُ ... ثم برز رأسها كاملا ، وقالت في اندهاش وضحكة :

— هو أنتِ يا زينة ؟... حسبتك راجِلْ، والله ... وأنا رأسي عريان ... كيف حالك ؟ ...

« ... ليتني كنت رجلا ... لو كنتُهُ لصفعت منه عَرْضَ القفا ... ماذا أفعل ؟... طوباك أنت ... جاهلة ، غبيّة ... حياة بلا مشاكل بلا عُقد ... الطّمع فيك محجّب بالجدران والأبواب ... »

ولم تجب فَطُّومَةَ عن سؤالها ... ودفعت مصراع الباب ودلفت إلى السّقيفة ، فالتحقت بها فطّومة ، وأمسكت بذراعها ، وقد فاحت من خصلاتها المنفوشة رائحة الزّيت المقليّ . وَوَشْوَشَتْ لها :

— شُفْتِ ، يا زينة !... خَدّوجة ، وجه البومة ، طلّقت زوجها المسكين ... قالوا عشقت سكريتير في الادارة ... أخيّتْ على قليلة الأصل ...

وقبل أن تعقّب على كلامها أدارت وجهها إلى الحائط تتّقي رائحة الزّيت والبصل :

— ممكن معذورة .

— معذورة ! بنت الحرام ... تحب السينماء والتلزيون ، والشّيخة والنّيخة ... اللّطف ، يا زينة ... الله يبقّي علينا الستر .

وأبصرت بطفلها يقترب من الكانون فهرولت إليه صائحة مولولة بعد أن خبطت كتف زينة بشدّة وهي تصرخ :

ولدي !... ولدي!... الكانون ! ... الكانون !...

كانت الساعة الحادية عشر صباحا ... الحوش يعجّ بالحركة والنشاط :

مسعودة منهمكة في غسل الصّحون وعلى مقربة منها طفلها يلعب في القعّاد ...

مريم تقطّع الخضرةوتلقيها في معجنةكبيرة من صنع قلاّلة ...

عيشوشة هي الأخرى مقسّمة بين المَرْوحة على الكانون وتقطيع السفنّارية واللّفت ...

كانت كلّ حجرة أمامها كانون يصنع أكلة الغذاء .

عبرت زينة فناء المنزل حتى وقفت أمام أمها المتربعة على جلد خروف تترشف كأسا من الشاي وتكاد تلتهمها بعينيها استفسارًا وتساؤلات ... لكن زينة دخلت الغرفة متجهمة عابسة ، فنهضت أمها مسرعة لتلتحق بها فأدركتها قبل أن ترتمي فوق المرتبة بعد أن ألقت بالسفط على البنك ، وخلعت حذاءها عالي الكعب .

وأقبلت عليها أمها متلهفة تسألها :

ـ آش عملت .

ـ شيء ما عملت

ـ ما قابلتيش المدير

ـ قال : ما ثمّاش بقعة

ـ آش بيك ! ياخي سعدك راقد !... فلانه وفلتانه أنت خير منهم ... آش بيهم ولّوا يخدمو ويجيبو الفلوس .

ـ بخوت !...

ـ وانت آش بيك ... اجري على بختك ...

ـ موشْ بالسيف ...

ـ موش بالسيف ؟... موش بالسيف ؟... ارجعي له غدوه ... أنت قابلت المدير ؟

ـ إمّا لهْ آش قلت لك ...

– لا ... لا ... ارجعي له ... لازم ترجعي له. قالوا قلبه رحيم ... ويعمل الخير مع كلّ النّاس .

– أبواب الرّزق كثيرة

– يزّيني عادْ ... ما تخلينيش نندب خدودي ... أنا قلت لك لازم ترجعي له ... كيفاش باش نعيش ؟... الله يرحمك يا ولد النّاس ، خلّتني نعاني ... يعيش بنتي ، ارجعي له غدوه ... راهو قلبه حنين .

محمد العروسي المطوي

موقص الافاعي

بقلم : الطاهر قيقـه

خـرج العـمّ محفوظ ضحى لصيد الافاعـي ، وقصـد المنطقـة الجبليـة التـي تفصـل جبـال زغـوان عن سهـول النّفيضـة. هنـالك بين الصخـور والسدر والحلفـاء تكثـر الحيّـات. وهنـالك كـان ينـوي أن يصطـاد أفعـى وثعبـانـا ليلعـب بهمـا بـالنّفيضـة يـوم سوقهـا ويستجدي النظّـارة.

كـان يُـرى قفـاه ، وهو يمشـي بخطـى عـريضة فـي جلبـابـه الفضفـاض حـامـلا جـرابـا ضخمـا كـان يصفـع أسفـل ظهـره .

وألحّـت الشمـس ، فـاحتـرقت الارض. وتصـاعـد منهـا بخـار وتخبّـل النظـر . وصـاحـت الصـراصير فصدّعـت الاذان ، وانطلقت الآف من الحشرات تطـايـر فتسـاقـط سكـرى على النبـاتـات الـذابـلـة. إنهـا للسـاعـة المنحـوسـة التـي يغـلي فيهـا دم الثيـران فيهيجـون وينطلقـون عـدوًا ، والـرعـاة وراءهـم حتى يسقطـوا علـى الارض صـرعـى . وإنهـا للسـاعـة التي تبـرز فيهـا الافـاعـي زاحفـةٍ عـلى الـرّمـل المضطـرم.

ووصـل العـمّ محفـوظ إلـى المنطقـة الـوعـرة التـي كـان يـأمـل أن يعثـر فيهـا علـى الافـاعـي ، فـأخرج من جرابه مقصـا وخفف الوطء عـلى الارض ثـم مشـى منحنيـا متـأملا عله يجد اثر انسيـاب . وكـانـت عمـامته المغربيـة لاتقـي

اعلى رأسه فبدت صلعته براقة كمرآة هزتها يمنة ويسرة يد صبي عابث.

وسكنت حركته فجأة ؛ لقد بدت له أفعى تنساب ؛ فحقق فيها النظر . وكانت عيناه ترسلان الشرار، ولحيته المسنونة ترتعش. وقفز وصوّب نحوها المقص ولكن أحست به فانفلتت في قفزة ملتوية . وأخذ العمّ محفوظ يقفز قفزات متوالية لا هوادة فيها من سدرة الى سدرة ، والعرق يتصبّب عليه ، وجرابه يصفعه بشدة على ظهره .
وليس في البرية أحد يسير على قدميه ولا دابّة ترعى . لقد بركت المواشي في ظلّ الزياتين وأوى الناس إلى دورهم للقيلولة.

وكان العمّ محفوظ يلحّ في القفز فيضيق نَفَسُهُ وتُسمَعُ في صدره حشرجة ، والافعى تحاول النّجاة منه فتوالي قفزاتها دون هوادة وكأن الشمس قد سُمِّرت في أعلى السماء .

* * *

دقّ الجرس وفتح الباب فارتمت عليه باكية .

— أخي ! ارحمني ! صفعوني ضربوني ...

لم يرها منذ سنين عديدة ، منذ الحادث الاليم ، حادث وفاة زوجها .

— انظر ما صنعوا بي . أنا أُخيّتك . أنا بين يديك ...

وأبعدها عنه ممسكا بكتفيها ، جاعلا بينه وبينها طولَ ذراعيه . وحدّق فيها النظر . فرأى أثرا أزرقَ في أعلى صدرها واخرَ في جانب ذراعها الايسر . ورأى خدّها ملوّثا . ولكن لم يكن هناك ما يُخيف .

— لا حول ولا قوة إلاّ بالله !... ما دهاك ؟... قصّي عليّ ما جرى ...تفضّلي ...

كانت تطوله . وكان دمعها منسكبا على وجهها يخطّ فيه سيولا . وكان شعرها الاصفر الكثيف المتدلّي على كتفيها يتحرك يمينا وشمالا من أثر النّحيب . وكانت أنامله تحس بارتعاد جسمٍ مازال متماسكا نابضا . لم تنل من عضلاته الرّخوة ، ولم يطمس السمَن خطوطه ولا منعرجاته . وجذبها داخل البيت .

وتدافعت نحوه في مشية جانبية فيها تحفُّظ وخجل ، ورمته بنظرة طويلة متسائلة من عينين مستطيلتين كعيني القطاط . وكان يتساءل في قرارة نفسه — وهو يقودها بيد واحدة كما لو كانت مُهْرا جموحا بدأت تلين — هل إنه أحسن صنعا أم جرّ لنفسه البلاء ؟ وأجلسها على كرسيّ واختطف ثانيا ، فركزه أمامها . وواجهها قائلا .

هيّا ! احكي ما جرى ، يا صالحة . عهدي بك بقرية "المنزل"... فما الذي أتى بك في هذه الساعة من الليل بتونس ؟

— يا حسين. يا أخي . بحق العشرة الطويلة استرني وارحمني . فقدتُ زوجي المسكين منذ عدّة سنوات . وأنا ساهرة على تربية ابني . وحياة الارملة شقاء دائم . نزلتُ بتونس اليوم لقضاء مآربي . وكانت كثيرة ؛ لاني لا أتسوّق إلى المدينة إلا قليلا ، متجنّبة الاقاويل . والناس لا يدعون أحدا مرتاح البال. ونظرت الى الساعة ، فاذا الحافلة على وشك الاقلاع ، وإذا بي أندفع نحوها مسرعة . وما إن سِرْتُ مدّة خمس دقائق حتى وقفت سيارة بجانبي ، وأحسست بنفسي أُخْتَطَفُ وأُزَجّ داخلها بين شبابين.

ـ كيف وقع ذلك ؟ ألم يكن هناك شهود ؟ ألم يَصِحِ المارة ؟ ألم يحاولوا إنقاذك من هؤلاء الاوباش ؟

ـ كان الشارع خاليا إلاّ رجلا كنت أراه قادما من بعيد .

ـ كيف تسلكين الشوارع الخوالي وأنت امرأة لا تعرف المدينة ؟ واصلي الحديث .

ـ أنا امرأة غريبة ضاع عني رشدي لما فطنت بقرب موعد إقلاع الحافلة فَتُهْتُ في المدينة... نعم اختطفوني وحاولت الدّفاع عن نفسي ، فصفعوني وضربوني . واستطعت أن أفتح باب السيّارة فرميت بنفسي على الارض فخافوا وتركوني ظانين أني جُرِحتُ أو متّ . ونهضت أفكّر فيمن ألجأ إليه بعد ما جرى فأكون آمنة على نفسي . وكنت أنت الوحيد الذي تبادر ذكرك لذ هني فقصدتك .

وما كانت هيأتها دالة على أنها تخلّصت من مأزق خطير . وأيقن أن القصة ملفّقة . وكانت واضعة يديها على ركبتين قد تعرّتا بعد الجلوس مطأطئة مُصيخة إليه .

وأحس بأنه سقط في الفخّ . ولكن كيف السبيل ؟ هل يدفعها عنه فليلفظ بها في الشارع لتعود إلى الجحر الذي خرجت منه ؟ كان ذلك فوق طاقته ؛ لانه أمسي يحس بالعطف يغمره أمام تلك المرأة المستسلمة الساكتة التي لا تبدي حراكا كما لو كانت تتوقع أن يُصْدِر عليها حكما قاسيا .

لم يرها منذ سنوات . ولكن كان يسمع عنها الكثير . كانت إحدى صديقاته بمدرسة "المنزل" عندما كانا صبيّين . وكانت لَعوبا ، متقلّبة ، فاتنة ... وكبرا معا . وكان من المُعْجَبين بجمالها وفتنتها يتقرّب إليها فيزاحم أصدقاء تهافتوا عليها تهافت الفَراش على

المصباح ، وهي بينهم تَعدُ فتخلف ، وتغري فلا تنيل إلاّ النّزر القليل محاولة أن تعدل بينهم ؟ تقرّب الواحد لتصدّ الآخر ، فتتركهم في حالة دوران مستمرّ كخيل في زريبة . وتخاصموا من أجلها وتشاجروا . وكان زوجها من الذين علّقوها منذ عهد الصِّبا ، وتهالكوا في سبيلها دون جدوى . وكان من عائلة مُوسرة . وجدّ في طلب العلم حتى أصبح طبيبا فعاد الى القرية . وآل على نفسه أن ينالها . وكانت أقصى ما يتمنّاه في الحياة . فبذل في سبيل إرضائها المال الغزير . وتزوج منها . ولم يَدْرِ أنه بذلك قضى على نفسه . واستوطن بها مدينة اختارتها مُنْطَلَقا له في الحياة . وكوّن الطبيب الشاب لنفسه علاقات وصداقات . وتعدّدت الزيارات . وسرعان ما عَصَفَ مارد في جسم صالحة ، فاندفعت في حياة اللّهو تجرّ زوجها إلى السهرات والحفلات وتعدّد الاسمار في بيتها . وأحس بعد مدّة بالاجهاد فلم يثبت . وانسحب تاركا زوجته يجرّها تيّار الحياة اللاّهية العابثة حتى أصبحت أحدوثة المدينة . وطلّقها — والقلب دام هائم بها — فعادت الى بيت أبيها بغلام . ولم تمض أشهر حتى مات زوجها كَمَدا .

وغادر حسين القرية بعد ذلك الحادث واستقرّ بتونس حيث اكترى هذه الشقة الصغيرة بغرفتيها احداهما للجلوس والاخرى للنّوم .

ومضت السنون . وكان يسمع من حين لاخر أخبارا متقطعة . راودوها عن نفسها فامتنعت وخطبوها فأبت فاحترق من أجلها الشباب وحنّ إليها الشيب وزهد الكهول في أزواجهم تَوْقا إليها ، فأصبحت في عزتها ومنعتها محط الآمال ومنبع الاحلام .

وكان يُحْكَى عنها أن لها حياة خفيّة يجهلها جميع أقربائها وأصدقائها حيث كانت تكثر من التردّد على تونس فتختفي فيها

فلا يعثر لها على أثر . وقد حاول بعضهم اقتفاء آثارها . وكأنَّها أحسَّت بذلك فاختفت عنه وأتاهته فغاب رشده وظل السبيل ، وبقي هائما طول النهار حتى وجد نفسه مساء امام الحافلة فرآها قد سبقته إليها تنظر من النافذة .

قال حسين :

– هيَّا بنا إلى مركز الشرطة نقص عليهم الحادث حتى يقوموا بتحقيق ينصفك مِمَّن سَطَوْا عليك .

– لا يا أخي . استر ما ستر الله . أنا من أسرة محترمة . أخجل من الوقوف أمام الشرطة أو أمام الحُكَّام . أفضِّل الاغضاء عمَّا جرى لاصون عرضي . والعِرْضُ كما لبلَّور سريع الانكسار .

– هل تعرفين من هاجموك ؟

– لا... معاذ الله... لم أرهم إلاّ هذه الليلة . ولم أتبين ملامحهم ، وقد اختطفوني في الظلام .

– لا... يا أخي... من فضلك . أطلب منك أن تحميني الليلة في بيتك إلى أن يطلّ الصّباح .

وأخذ يُطيل فيها النظر ، والهواجس تتنازعه . لا شك أنها رواية مختلقة . لا شك أن صالحة قصدته لامر في نفسها . ما هي بغيتها ؟ ولماذا لا تصارحه ؟... هل تنوي الكيد به ؟... هل أمسى فريسة ترصد ؟... لقد عوّدته بأن تكونَ دائما هي البادية... وأخذه الهلع في أعماق أحشائه . وسرى في بدنه وأحس بقوة تدفعه القهقرى وهو ينازعها ... وهي هي جالسة امامه محنية الظهر مُطرقة ... وكان متهيبا من لحظة سترفع فيها رأسها وتحرك شعرها على كتفيها

وترميه بنظرة كالشهاب . ثم يشعر بأن الهلع أخذ يحوّل الى الشعور بالرّضا والاطمئنان المشوب ... هل يلقي بنفسه إلى التهلكه فيجد في الهلاك لذّة ... سئم ما اختاره لنفسه من حياة ومن سلوك ... آن له أن ينفض عنه الغبار وأن يقابل حياة جديدة ... وهذه المرأة أمامه دنيا جديدة ، دنيا بأسرها ...

وأسلم أمره إلى الله وقال :

ـ يا صالحة ... قومي انفضي عنك غبار المعابر والطرقات ... اذهبي إلى غرفة الاستحمام فاستحمي ... ثم نستعد لسهرة سوف تطول . وقامت . وبدا منها قدّ طويل وانثنت في عنف ، ودخلت غرفة الاستحمام ، وأغلقت الباب على نفسها . وسمع بعد لحظة شقشقة الماء في الحوض فحرّك يده كأنه يذبّ ذبابة لينتشع عنه شبح المرأة العارية وهي على مقربة منه ، تسكب الماء على جسمها . وقام ودخل المطبخ ليضع الماء على النّار ويعد القهوة .

* * *

ما زال العمّ محفوظ يقفز في البرية والعرق يتصبّبُ عليه . كم من أفعى تخلّصت منه فغاصت في الرّمل فلم يعثر لها على أثر . وعقد العزم على اقتناص واحدة يومها كلّفه ذلك ما كلّف . كُتِبَ له أن يرتزق – على كبر سنّه – من اقتناص الافاعي والثعابين وترويضها واللعب بها في الساحات العمومية . لقد طبّق الارض وجال في الآفاق وعرّض بحياته مرّات . وكان راضيا عن نفسه مطمئنّا ؛ لانه لولا تلك الحيّاة المحفوفة بالاخطار التى كان يحياها لما أبرز ما كان رابضا في نفسه من قوّة فيّاضة ، ورجولة كاملة ، وعشق للحياة المتحرّرة . ولكن مضى الزمان وأقبل الشيب وبدأ العمّ محفوظ يحس بالاجهاد وبميْلٍ عنيف إلى الحياة الهادئة المستقرة كأنّ حبلا بدأ

ينقطع في نفسه ، وكأنّه كان يحس باقتراب الاجل المحتوم ؛ لان مطاردة الحيوانات السّامّة ومباشرتها تفرضان على المرء انتباهها لا يفتر لحظة ، وتعلّقا بالحياة لا يني .

هكذا يُصْرَعُ الجنود في ساحة الوغى ... يصرعون إذا انحلّ ما كان معقودا في قرارة أنفسهم واستكانوا لبوادر الفناء .

وضغط العمّ محفوظ على نفسه وأبرز من ذخائرها الكامنة هِمّةً مستعادة لمواصلة الاقتناص .

وانسابت أفعى طويلة غليظة ، أفعى عجوز ، واندفع نحوها مصوّبا المقص ، قافزا قفزات عنيفة كالبهلوان ... سيظفر بها لامحالة ... ستبهر النّظّارة ... سيسميها "أم الاقراط" لغلظ رأسها ونتوء حاجبيها ... ووالى القفزات متتبعا انسيابها ومخاتلاتها حتى قبض على وسط بدنها بالمقص فصاح صيحة المنتصر . وكانت تتخبط محاولة التخلّص ، وهو يُمعن في الضغط عليها ، حتى سكنت قليلا فأخرج عُوَيْدا أخضر طريا من جرابه ، وأدخله في فمها برفق فعضته وأفرغت سمها ، ثم دسّها في الجراب .

ولجأ الى سدرة . واتكأ في ظلها القصير ليرتاح قليلا .

* * *

والتحقت به في المطبخ ، وقد كانت نقيّة تفور منها رائحة ذكية هي رائحة جسمها وقد زال عنه التّعب فتفتح كالنّور في العشيّة . وسكنت قسمات وجهها فبدا متألّقا . وبهره جمالها ، ولاطفها بالحديث مستجديا ابتساماتها ، وأخذ يطوف في المطبخ الضيّق في حركات غير منتظمة ليبحث عن الملاعق والاكواب

والفناجين والطّبق فلا يجد شيئا . وكان كالثّمل يصطدم بها في كلّ خطوة . وأمسكته من كتفيه وألصقته في رفق بالجدار قائلة :

ـ دع عنك هذا ـ يا حسين ـ سأقوم به مكانك . وسرعان ما جالت في المطبخ فوجدت كلّ شيء . أخرجت الطبق ووضعت عليه فنجانين وملعقتين وعلبة السكر ورفعت "البقراج" عن النّار ووضعته أيضا على الطبق وكانت تفوح منه رائحة القهوة تداعب الانف . وحملت الطّبق بما فيه واتّجهت به إلى غرفة الجلوس في حزم وخطى ثابتة كما لو كانت ربّة البيت ... وتبعها مندهشا ... أهذه المرأة التي تمشي أمامه بخطى موقّعة راقصة هي التي اقتبلها باكية منتحبة منذ حين ... وكان يفتنه منها ساق بيضاء مخروطة دق كعبها واستدارت ركبتها ، وقدّ ينبعث متصاعدا من خصر دقيق كنبع في غاب .

ووضعت الطّبق على منضدة . والتفتت اليه باسمة ، وهو يجرّ خطاه . كان يبهره منها قوة متدفّقة من جميع عضلاتها كانت تساوره . واتجهت إلى النّافذة فأسدلت ستارها وضغطت على زرّ سراج السهر ، وأطفأت أنابيب السّقف فخيّم على الغرفة جوّ من الطمأنينة لم يعهده حسين منذ اكترى هذه الشقّة . فقرّب إليها كرسيا ودعاها إلى الاستراحة فيه . وهمّت بصبّ القهوة في الفنجانين فأبى . وأجلسها فجلست . ثم تمدّدت على قفاها في بطء ولين باحثة عن الرّاحة .

وصبّ القهوة ورمى بقطعة من السكّر في قهوتها ، وزادها ثانية بعد أن استشارها بالنظر . ووضع لنفسه قطعة واحدة وحرّك القهوتين بالمعلقة وجذب إليه كرسيا وجلس أمامها واستعدّ لسهرة طويلة وفصلهما صَمْت دام لحظات .

وضغط السكون عليه فانتفض . وأراد أن يقوم بخدمة لها حتّى يُزيل عنه شعورا غريبا يشبه الاستسلام اللّذيذ الى المخدّرات .

وسألها هل تريد أن تأكل شيئا فادعت الشبع ولكنه أبى إلا أن يناولها طعاما . وجال في البيت وفتح أبواب الخزانات وأغلقها وعثر آخر الامر على قليل من معجون البرتقال وشيء من العنب فأتاها بهما ووضعهما بجانبها .

وعاد الى كرسيه . واستعد ثانية للسهرة . وكانت صالحة ساكتة منذ لحظات طويلة . لم يتمدر حسين على الكلام ، ولم يرغب فيه لئلاّ يفسد ذلك الجوّ السحري الذي فجر في أعماق نفسه ينابيع لم يكن يعهدها فيها واعدم الزمان .

وطال سكوتها وتمططّت على الكرسيّ في تكاسل وغتج ، وتثنّت ذات اليمين وذات الشّمال فكان كساؤها الاخضر الحريري يتلوّى ، تثنيه حركات جسم نابض منساب كالماء تحت الخمائل . وكانت قد ضيّقت عينيها فبدتا خيطين أخضرين في وجه جالت عليه ابتسامة خفيفة .

ومدّت يدها الى الفنجان . وأخذت ترتشف القهوة في بطء . وتناولت معجون البرتقال فأكلت منه وأخذت تمتصُّ ما بقي بالملعقة مُغْمضَة عينيها في لذّة وتخابث . ثم فتحتهما ورمت حسينا بنظرةً طويلة قائلة :

— يا حسين ... ألم تذكر يوم كنّا نلعب فنتسابق عبر الرّبى والاودية التي تحيط بالقرية فتلتوي قدماي فأسقط على الارض ولا أقدر على النهوض ، فتسعفني وتعود بي تحملني بين ذراعيك ، وأنا أبكي ألمـــا ...

طاطأ راسه وابتسم ... نعم يذكر ذلك اليوم كما لو كان البارحة . نعم . التحق بها وهي مستلقية على الارض ، وانحنى عليها فرآها تعض

شفتيها ألما فمسد ساقها وكعبها . ثم رفعها بين ذراعيه وعاد بها إلى بيتها . يذكر كلّ ذلك ، ويذكر خاصّة حرارة جسمها تتسرّب في جسمه ودقّات قلبها وحركات تنفّسها . فاضطرمت في نفسه نار كانت خامدة .

وربّما فضحت قسمات وجهه ما كان يستعر في أحشائه . فرمته بنظرة جانبية كأنها تلمسه بعينيها . وتناولت عِنَبا واستلقت على قفاها ناظرة إلى السقف . ورفعت العنقود الذي كانت تمسكه فتدلّى على فمها وقرّبته من شفتيها حتى مستهما حَبَّة من العنب ففتحت فاها ، وعضّت عليها، ثم أبعدت العنقود عن وجهها وقالت :

— يا حسين ... أتذكر العهد الذي كلّفك فيه أبوك بنقل الحبوب من البيدر إلى المخزن ؟ وعثرت عليك ذات يوم راكبا على الحمار معانقا الكيس بكلتا يديك فدفعتك فسقطت والكيس ، ونهضت غاضبا ، والتحقت بي وضربتني ضربا مبرحا .

— ما أخبثك يا صالحة ... أذكر ذلك اليوم الذي تمنّيتُ فيه أن يكون موتك بيدي .

— كنتَ لا تميل إلى اللّعب ولذلك كان يلَذّ لي أن أمازحك ... كنتَ ، ولا تزال ، إلى الجدّ أميل ... سامحك الله . تركت على جسمي آثارا لم تُمْحَ إلاّ بعد أسابيع .

ذكر ذلك اليوم الذي ضربها فيه بكلتا يديه في كل مكان من جسمها وهو كالمعتوه . وهي ضاحكة باكية تستغيث وتسترحم . ويذكر ما عقب تلك النّوبة من ندم وعطف وهيام . وتمادت في أكل العنب بشفتيها حبّة حبّة وهو يرميها بنظرات هائمة تائهة . وخيّم السكون . وانسابت اللحظات متباطئة مسترخية .

وأحس بدافع قوي يدفعه إليها ... ما أطول الليل ... كيف الخلاص من هذه الورطة ... وقرّب منها الكرسي فسرت في كامل جسمها رعشة خفيفة جعّدتْ كساها الرقيق ... وهزّته رعدة ، وهمّ بها . ولكن رجع على نفسه وكَسرَ جماحها ولعن الشيطان .

— يا حسين ... أتذكر يوم زواجي ... كانت حفلة بهيجة اهتزت لها أركان القرية وكنت يومها في حالة غامضة بين السرور والاسى ... ما لاقيت هذا الحَدَث بالابتهاج المعهود عند جميع الفتيات إذا تزوجن ... شقّ عليّ أن أخص لواحد . وأن تكون لحياتي حدودها ... وأذكرك — وأنا في الموكب تحيط بي النسوة يحملن الشموع والمباخر ويغنّين بأعلى أصواتهن — أذكرك تنظر اليّ من الرّصيف بعينين كانت تدمعان .

ونظر إليها طويلا . ونظرت إليه في جدّ ، وقد زالت الابتسامة التي كانت ترفرف على وجهها . وتلوّت على الكرسي .

نعم يذكر تلك الليلة التي أحس فيها بأن الارض قد اندكّتْ . وبأن الحياة قد فقدت طعمها . هل كان يحبُّها حقا ؟ ألم يكن يؤذيه سلوكها ؟ ألم يكن وجودها مهدّدا مزحزحا للقيم التي كان يَدين لها ؟ ولكنها هي الجمال الزاحف والحياة المتدفقة التي تقضي على كل زيف وبهتان ، والحرية الغالية التي تكشف القناع عن كل رياء ونفاق !...

وأطلّ الصباح فوردّ السِّتار ، فنهض حسين ، وفتح النافذة ليستقبل أشعّةَ الشمس .

* * *

سلك العمّ محفوظ بَطْنَ وادٍ عميق . إنه يبحث الآن عن ثعبان

عظيم يهول الناظرين فتتسع حلقة النظارة فجأة إذا أخرجه من الجونة ... لقد هيأ له جونة من قصب وغطاها بالادم ، ووضعها في الجراب ... كسب ثعبانين في حياته ... عثر على الاول في أنقاض دار قديمة أتت عليها معاول المدمرين . وقد حدثه أصحاب البيت : أن أجدادهم عرفوه والثعابين تعمر طويلا وتحرس الدور . كان ذلك الثعبان ضخما ، هرما ، بطيء الحركات ، قصير النظر ، ولذلك روضه دون عناء فأمسى متعلقا بالحواء الذي كان يطعمه بالبيض فيشبعه وصاحبه عشرين سنة . وصدقت عشرته . ثم مات فدفنه العم محفوظ وحزن عليه .

واصطاد ثانيا في البرية ولعب به سنوات إلى أن فر . وقع ذلك منذ أسبوع وبمحضر من النظارة . أخرجه من الجونة فتقهقر الناس في سرعة واضطراب موسعين الحلقة . وقابله العم محفوظ بدفه كعادته ونقره نقرات ، وإذا بالثعبان يهتز ويقفز موليا بوجهه . فأفرج النظارة له الطريق ، وفر الناس في أزقة القرية صائحين . وبقي العم محفوظ واجما . لقد اختار ثعبانه الحرية . وبارح العم محفوظ القرية متسللا .

وعثر فجأة على آثار انسياب زاحف عظيم لم يشك في أنه ثعبان فتتبعها حتى أوصلته إلى مدخل غار أمامه ساحة فرشت بالحصى والحصباء . ووقف العم محفوظ واستعد للاقتناص .

وضع جرابه على الارض . وأخرج منه أربع بيضات وضعها على الحصى . ثم أخذ دفه وقام يدقه دقا عنيفا سريعا ويمشي أمام الغار مشية جانبية ، وعيناه محدقتان في انتباه شديد الى ذلك الشق الاسود الذي كان يبدو كالجرح في سفح الجبل . وأطال الدق على الدف وإذا برأس أسود يطل من الغار فيقفز العم محفوظ إلى الوراء

* * *

دون أن يكفّ عن الدق . ويتبع الرأس جسم أسود ، غليظ ، طويل ، أخذ ينسلّ في بطء رهيب .

لم ير العمّ محفوظ ثعبانا له هذا الحجم .

وأحس برعدة تهزّه . لقد سدّ على نفسه طريق الرّجعة ، لان الثعبان إذا أدبر قفز عليه ونهشه . سوف يبقى ساعات يساور الثعبان والثعبانُ يساوره إلى أن يقضي أحدهما على الآخر . كان العمّ محفوظ شاعرا بهذا شعورا مرهفا . وأخذ الثعبان يقفز في الهواء في اتجاهه والعمّ محفوظ ينفلت منه عَدْوا وقفزا ، وهو لا ينفك من ضرب الدفّ وتبديل الاوزان آملا في إتعاب الثعبان وتخدير أعصابه .

وشاهد الثعبان بيضة فانقضّ عليها وازدردها . وانتصب ملوّحا برأسه ، وأخرج لسانا دقيقا من فم كان يبدو كمنقار النّسور .

لم يغتنم العمّ محفوظ ازدرادَ البيضة الاولى ليجهز عليه ، لانه لم يأمن سطوته ما دام نَشِطا لم ينل منه التّعب والاجهاد .

وانطلق الثعبان مُصَفِّرا كالرّصاصة في اتجاه القانص ، فصاح وقفز قفزة إلى الوراء وما انفلت الدفّ من يده وما كفّ عن الدقّ .

*
**

دمرته الحياة تدميرا حتى أمسى كمن أصيب بضربة في أمّ رأسه . كانت له مقبلة فأدبرت . لقد نشأ في عائلة غنية وضعته صانعا في دكان حلاّق لما لفظته المدرسة لذكائه المحدود وزوّجته صغير السن . ثم عصف بالعائلة الافلاس فذهب ريحهم ، فشمر صالح عن ساعد الجد واكترى حانوتا يحلق فيه ، فبارت صناعته وكسد سوقه لفقر أهل الحي وكثرة الحلاّقين القدامى . ورزقه الله البنين ذكورا وإناثا وعمر بهم البيت . وأدرك أن لابدّ له من تبديل النشاط للتحصيل على

قوت عياله . فتحوّل الى لبّان ثم إلى راتق أحذية بائدة ثم سلّم الدكان إلى صاحبه لانه عجز عن دفع الكراء وانتصب بقّالاً على قارعة الطريق . ثم اشترك بالنّصيب مع صاحب عربة وأخذ يدفعها بيده في الازقّة محمّلة بالبقول والثمار او فواضل سمك السوق . ومهما نغّم صوته صائحا مادحا بضاعته ملمّحا إلى زهادة الثمن بقيت الابواب موصودة لغوات وقت السوق وقلّة ما في اليد . واشترك بالنّصيب أيضا مع صاحب سيّارة قديمة وأخذ ينقل الناس في الضواحي القريبة بدون رخصة حتى عثر عليه الشرطة فشوّهوا بحاله ، فعاد إلى قارعة الطريق يعرض البقول على المارة . وأيقن أنه حصل في دوّامة لا أمل في التخلّص منها ، دوّامة الفقر .

وبحث عن السّلوى فدلّوه على الخمر فوجدها مرّة المذاق . ولم يُطِق ما يعقب السكر من صُداع . ثم انجرّ إلى لَعب الاوراق فأحس بضرب من الانشراح . ولكن الخصام والصياح والضرب الشديد على موائد المقهى هدّت أعصابه . ونصحوه بشم النسيم خارج المدنية وخاصّة بالزلاّج للجمع بين مفاتن الطبيعة الغنّاء ومشاهدة المدنية من سفح الجبل والاتعاظ برؤية المقابر ولكن التجوّل بين الاموات زاده هما على همّ .

وفي آخر الامر نصحوه بصيد الاسماك بالشصوص لما فيه من انتباه شديد وتخميد لهواجس النّفس ، فاتخذ خيطا طويلا لفّهُ على رقعة من الكاغد المقوّى واشترى شصوصا وبحث عن الديدان ... ها هو قابع اليوم على ضفّة قناة حلق الوادى حيث تمر السفن المتجهة إلى ميناء تونس . قالوا له : إن السمك يسلك ممرّ السفن طمعا في القوت . فجلس هناك تقيه مظلة حرّ الهجيرة . وأرسل الخيط بعيدبعيدا ، وبقي ينتظر ... سوف يصيدها سمكات حيّةٍ قافزة

سمينة لا كالهزيلة النتنة التي كان يتجوّل بها في الازقة ، فلا يجد لها زبونا . وسوف يعود إلى البيت في يوم الجمعة هذا بسلّة ملاءى فيشبع الاولاد ويهدي منها إلى الجيران . والقِدْرُ إذا فاحت في الحي دفعت ربّةَ البيت إلى أن ترسل من طعامها إلى جيرانها الاقربين فلعلّ في الحيّ حُبْلى أو فتاة عذراء . والحبلى والعذراء لا تُرَدّ لهما شهوة . لم يصطد شيئا في الاسابيع الماضية . ولكن يوم الجمعة هذا بدا من صبحه متألّقا فبعث الامل العريض في قلب صالح . ثم إن من دلّه على المكان من الصيّادين المحترفين القدامى اللّذين يعرفون مسالك السمك والبقاع المعبأة .

فكان ماسكا الخيط في رعشة خفيفة يتحسس لكلّ حركة تسري فيه ويحلّلها فيفرّق بين دفع الماء السائل ولَمْسِ العشب ووخز الشمس لحصى القاع .

وتوالت الساعات عليه . ومرت سفن البضائع ببطء سالكة طريقها إلى تونس أو مقلعة عنها في طريق حلق الوادي . وهزه دوّى قطار الضاحية الشمالية وهو يجري على السكة ووراءه .

توالت الساعات وبدأت الشمس تنحدر من أعلى السماء . وإذا بالشص يُخْطَفُ فيحسُّ بقلبه يقف . ثم يندفع فيدقّ بسرعة ... ها هي السمكة قد عضّت الشص . وأخذت أنامله تتحسس الخيط حتى أصبح كأنه امتداد لها يسجّل حركاتها المتنفضة فتنعكس في جسمه مضخّمة داوية كانت تجذب الخيط بعنف فأرسله لها ليخاتلها ، وسرت في جميع الاتجاهات وهو ماسك الخيط يترصّد الفرصة لاخراجها من الماء . لو كانت بيده قصبة لكانت حركاته أصوب وأنجع . ولكن سينتزعها من بحرها لا محالة .

وأحس لاول مرّة في حياته بأنه مسيّر للاحداث مسيطر على الموقف وانقشع عنه الشعور بالهزيمة وحلّت مكانَه النّخوة بالانتصار وأخذ يطيل المراوغة والمخاتلة لابطاء لذّة الظفر . لقد أقبل الدهر . وليس لاقباله من مرد . سوف تتلو هذه السمكة سمكات يملا بها سلّتَه يسوقها القدر الى شخصه سَوْقا . والامور على أوائلها ، وإذا بدَتْ من الخير بادرة انهال فأعجز جامعه .

وقرر جذب الخيط ، وحرّك يده بعنف إلى أعلى فطار في الهواء خيط مقطوع لا يحمل شيئا ، فرت السمكة بالشص .

واندهش صالح وأيقن أنه منحوس الطّالع وأن لا فائدة في تغذية الامل فلفّ خيطه على رقعة الكاغد المقوّى ورماه في سلة الديدان . وعلّق سلّة الصيد الفارغة إلى كتفه وتوجّه راجلا إلى تونس بعد أن رمى في الماء تذكرة الرجوع في القطار .

* * *

انتهت المساورة بين القانص والثعبان منذ حين وقد نال منهما التعب ، فتقابلا بعد رقصة مهولة حاول كلاهما القضاء على الآخر .

كان العم محفوظ يدق دفّه دقا لطيفا بطيئا ، مُميلا رأسه يمينا وشمالا . وكان الثعبان منتصبا يُميلُ هو أيضا رأسه متتبعا حركات قانصه . كلاهما ينظر إلى الآخر مترصّدا لحضة الغفلة .

لا بد أن لا يخطيء العم محفوظ في السورة الاخيرة ، ذلك المكان في القفا وأسفل الرأس الذي سيمكنه من الضغط على أنبوب التنفّس . فاذا اخطأ القبضة قضي عليه .

لم تبق إلاّ بيضة واحدة لم يزدردها الثعبان وقد نال منه التعب وخدّر دقّ الدفّ أعصابه ولم يطق تحديق نظره القانص فأطفأ شرار عينيه . وأحس العمّ محفوظ بأنّ اللحظة قد اقتربت ، وجمع ما في نفسه من غريزة الغاب الكامنة .

وأرسل الثعبان أعلى بدنه في اتجاه البيضة فأسقط العمّ محفوظ الدفّ وانقضّ عليه بمجامع قواه مسبّقا يديه . وأصاب منه القفا .

الطاهر قيقة

وتهوى حبيبتي الخيل

بقلم : حسن نصر

كنت اشرد عبر حلبة السباق ، حين اندفق صوتها يملؤنى بالفرح ·· وجعلت تحدثنى عن الخيل ، وتضغط على ذراعي ، وشعرها الحريرى الاصفر ينسكب على كتفى كالشلال ·· لم اكن مغرما برياضة سباق الخيل ، ولكن تلهف ميسون حبيبتى ـ وانا احب تلهفها ـ يجعلنى لا اعارض رغبتها لحظة واحدة ·· وبرغم ان هذه اللعبة لم تكن لتستهوينى ؛ فقد كان يعجبنى حديث ميسون عن الخيل ، اذا تحدثت وتواصل حديثها ·· فما كنت لامل سماعه ولا لأسلوه ··

كثير من الناس جاءوا للسباق مثلنا ·· يجلسون في المدرج الخشبى من حولنا ·· بعضهم كان يمسك بالمنظار المكبر بين يديه ·· ميسون ايضا كانت تمسك بالمنظار المكبر بين يديها ·

مرة اخرى سرحت ببصرى عبر الحلبة ·· ومن جديد جاءنى حديثها عن الخيل ·· حاولت مقاومة الاغراء في صوتها ·· لكنها التفتت الى ، وقد فتحت عينيها على اتساعهما ·· على زرقتهما ·· وهى تعرف انه بمقدورها ان تأسرنى فيهما ··

كانت لا تحب ان ترانى واجما ذاهلا هكذا ·· ولقد استولت على بصوتها ، بنظراتها ·· فاستسلمت واطعتها ·· انا دوما اطيعها في كل شيء ··· كنت ادرى انه لكل منا عطش من نوع ما ، ولا بد لنا من منهل لكى نطفيء تعطشنا ·

طال بنا الجلوس ونحن فى انتظار بدء السباق ‥ فطفقت ميسون تسألنى كالطفلة وقد عيل صبرها :

ـ لماذا تأخرت الجياد عن الظهور فى الحلبة ، لم يبق الا وقت قصير على موعد السباق ، سوف لن ننعم برؤيتها كما يجب ٠

وقلت اطمئنها :

ـ عما قليل ستهظر وستشبعين بالنظر اليها ٠

ثم ملت وقبلت خدها الملتهب ‥ وكان رجل يجلس فى المدرج الخشبى تحتنا ‥ عن شمالنا ‥‥ كان وجهه يلتقى بوجه ميسون مباشرة ‥ وكان يطيل النظر اليها بشكل فاضح وبعينين مفعمتين بالاسى ؛ فالفتت ميسون الى تنبهنى الى وجه ذلك الرجل قائلة :

ـ أرأيته كيف ينظر الينا بوقاحة هذا الوجه الذى يشبه وجه حصان ٠

ولسبب ما ضحكنا على كلمة وجه الحصان هذه ‥ ضحكنا الى حد ان ميسون استبد بها السعال ‥ فجعلت أربت على ظهرها وارعاها ‥ ونظرت الى الرجل فوجدته لا يزال يراقبنا ونحن نضحك ‥ كان أنفه يمتد طويلا نحيلا من اقصى جبهته وينزل بشكل منحن فوق شاربه ‥ وكان ذقنه هو الآخر طويلا ٠ وقد تعلقت عيناه الكئيبتان تحت حاجبين مطموسين ٠ بينما اطلت من فوق جبينه بعض شعيرات كانها رؤوس الشياطين ‥

الشمس تغسل الحلبة ‥‥ الزمن بعيد الظهيرة ‥ كانت الطريق المعدة للسباق تبدو حمراء اللون ، وهى تمتد على مدى البصر بيضوية الشكل عريضة ‥ وكان ثمة نسيم عليل يهب من جهة الشمال ‥ غرقنا فى الصمت لحظة ثم قالت لى ميسون :

ـ لقد طرفت عينى اليسرى ٠

وبدا لى ان سحابة من الكآبة علت وجهها ٠ أو هكذا خيل الى ، فقلت ، وأنا اتعشقها :

ـ لا تفكرى فيها ٠٠ عما قليل ستظهر الجياد ولسوف يفوز جواد رهانك وسنقضى مساء جميلا ٠٠ فلا تحزنى والا فستحزن الشمس ٠٠ »

بقينا صامتين مدة من الزمن ٠٠ سألتنى ميسون بعد ذلك قائلة :
ـ « فيماذا تفكر » ٠
ـ « افكر فيك » ٠
ـ « فى أنا ؟ ! » ٠
ـ « وما العجب فى ذلك » ٠
ـ « ولكننى بجوارك » ٠
ـ « وهل هذا يكفى ٠٠ »

عدنا الى الصمت ٠٠ ولاحت الجياد تخطر فى اتجاه الحلبة ٠٠ فهتفت ميسون ، وقد غمر صوتها فرح مفاجئى ، وهى تلوح بيدها :

ـ « ها هى ذى الجياد مقبلة ٠٠ أرأيتها ؟ »

أطلت الجياد مرفوعة الرؤوس ، بادية النشاط جميلة ٠٠ وسائسوها يمشون بجوارها آخذين بأعنتها ٠٠ وما كادت تتخطى بوابة الحاجز الخشبى المفضية الى الحلبة ، حتى رفع فرس منها قوائمه الأمامية فى الهواء عاليا وصهل ٠٠ اشرأبت الاعناق اليه ٠٠ ورفعت ميسون المنظار الى عينيها تتفرج٠ ثم هتفت باشراق وهى تشير باصبعها ، والفرح يكاد يستطير بها :

ـ « إنه جوادى ! رأيت رقمه ؟ ٠٠ الرقم تسعة ٠٠ هو الذى كان يرفع قوائمه فى الهواء ويصهل ٠٠ ذلك الاسود المتوهج فى ضوء الشمس ٠٠ انظر الى صاحبه كيف جعل يمسد عرفه المحفوف بعناية ٠٠ يالتلك العينين الشرستين !٠٠ وذلك البياض الناصع المتفتح كالزهرة فى جبينه !٠٠»

وناولتنى المنظار ٠

فاخذته منها ، وتطلعت حيث كانت الجياد تأخذ مواقعها أمام الخط مستعدة للانطلاق ٠٠ ونظرت الى الجواد رقم تسعة ، كان مفرعا جميل الوجه ٠٠ طويل العنق غليظه ٠٠ رفيع القوائم ٠٠ ذنبه مرفوع بعنفوان ؛ وسألتنى ميسون :

ـ « كيف ترى جوادى ؟ » ٠

أجبتها :

ـ « انه جواد جيد ما فى ذلك ريب » ٠

استرجعت منى المنظار ، وظلت تتطلع الى جوادها ٠٠ ثم هتفت قائلة ، وقد تغير صوتها كما لو كان صوت طفلة فى السادسة من عمرها :

ـ « أرأيته كيف استدار بوجهه ينظر الى ٠٠ »

وراقبتها ٠٠ عيناها ايضا كانتا تلمعان كعينى طفلة ٠٠ واحببتها اكثر ٠٠ اننا لكى نحب المرأة بشغف شديد لا بد ان نكون قد اكتشفنا أنها تنطوى على هذا الشىء من البراءة الطفولية ٠٠ وغمرتنى سعادة لا توصف ٠٠ ولم اجد بدا من تقبيلها ٠٠ فقبلتها ٠ كانت عينا ذلك الرجل المفعمتان بالاسى ترنوان الينا ٠٠ انطلقت ميسون تضحك فى انتشاء وهى تميل على وتقول :

ـ « انظر الى وجه الحصان كيف اخذ ينظر الينا بوقاحة ٠٠ قبلنى مرة اخرى شماتة فيه » ٠

وطفقنا نضحك ونضحك ٠٠٠

توقفت الجياد أمام خط الانطلاق متحفزة مستعدة ، وهى تضرب الارض بسنابكها وتصهل وتلوى اعناقها ٠٠ اكتمل جمعها واعتلى الرجال صهواتها ٠٠ وما هى الا لحظة حتى اعطيت اشارة الانطلاق وارتفع الحبل ؛ فانطلقت الجياد تسابق الريح وقد اطلق الفرسان لها العنان وانحنوا على ظهورها ٠٠ يستحثونها ويربتون على اعناقها برفق وبحركات رشيقة ٠٠

بدت الجياد اول السباق ملتحمة ، متقاربة ، متشابكة ، حتى لا تكاد تميز بعضها عن بعض ٠٠ ظلت كذلك حينا من الوقت ٠٠ ثم جعلت تتفرع شيئا فشيئا ٠٠ فقد انفصل جوادان عن المجموعة ما لبثا أن أدركهما جوادان آخران ؛ ظلت الجياد الأربعة متنافسة منفصلة عن باقى المجموعة ٠٠ ولم تمض حصة طويلة على بدء السباق حتى انقسمت الجياد الى ثلاث مجموعات تفصل بين كل منها مسافة غير بعيدة ٠٠ وكان جواد ميسون الأسود قد التحم منذ البدء فى المجموعة الاولى ٠٠ كان تفوقه واضحا ٠٠

وما ان وصل السباق نهاية الجولة الاولى حتى كان الجواد الاسود يندفع قويا متفجرا •• بينما ارخى له راكبه العنان •• فانطلق يكاد يطير به •• يمط جسمه ويطوى الارض طيا •• يثير من حوله الغبار •• وينثر الزبد من جانبى فمه •• هادرا منصبا كالسيل ، طافرا متدفقا كالطوفان •• وقد خلف كل الجياد وراءه ، حتى ليخالها الانسان وكأن الاعياء قد انهكها ، فبدت مكدودة متعبة •

وتعالت هتافات الاعجاب وقالت ميسون :

ـ « كم هو شبيه بتلك اللوحة المعلقة على جدار غرفتى » •

كان يعدو وكأنه الماء الجارى فوق الحصى •• متفجرا كالفيض •• اسود لامعا ، متباعدا عن كل الجياد •• كل الناس جعلوا يلاحقونه ، يتتبعونه ، يراقبونه •• وهو كموكب يثير الاعجاب •• يعدووكأنه يغرف من الارض •• يعدو كالعائم فوق المياه وحيدا منعزلا ؛ اذناه منبسطتان الى الخلف ، وهو يعدو لا يلوى على شىء •• يعدو كأنه سحابة فى السماء •• اصبح الناس يتتبعونه بقلوب واجفة ، وقد اخذتهم الدهشة ، وسادهم السكون •• فلم تعد تسمع الا وشوشة خفيفة •• حتى صار بامكاننا ان نتبين وقع حوافره يعلو ويتفاقم على البعد •• والجواد يعدو •• وميسون تتبعه بمنظارها فرحة مبتهجة • حتى لقد قبلتنى من فرط السرور قبلتين •• قبلة من أجل جوادها المنتصر ، والاخرى شماتة فى وجه الحصان الذى ما انفك يراقبنا •• ولاول مرة شعرت بارتعاشة تسرى فى بدنى ، وبدأت اكتشف سحر هذه الرياضة •• بينما استمرت ميسون تردد بصوت فيه امتلاء وجمال :

ـ « سيفوز جوادى لا محالة ، وسنقضى مساء جميلا » • واعادتها •• « سيفوز جوادى » •

وجعلت تهزنى من كتفى •• سيفوز جوادى ، لقد أشرف السباق على النهاية •• لم يعد بامكان احد الجياد اللحاق به •• سيفوز •• انه فى الجولة الختامية ، وهو لا يزال فى المقدمة •• لم تبق الا مسافة قصيرة •• سيفوز جوادى الاسود الجميل ، وسنقضى مساء جميلا » •

كنت ابتسم ملء قلبى ، حين فزع الناس •• واطلقت ميسون صيحة مروعة •• تطلعت الى الحلبة ، فرأيت الجواد الاسود قد انحرف عن خط سيره ؛

واندفع بجنون ، مقتحما أحد الاسوار كالعاصفة ٠٠ وقد طوح براكبه بعيدا ، فتردى على قفاه بلا حراك ٠٠ بينما انكفأ الجواد على وجهه ورأسه منغرس فى التراب ٠٠ ثم التوى وانبطح على جانبه٠٠ كان جسده الاسود الضخم يلمع كاللهب فى ضوء الشمس ، وقد اغتسل بالعرق ٠٠ فى حين اخذت الجياد الاخرى تدخل منتصرة خط النهاية واحدا بعد واحد ٠٠ ورغم اننا كنا نشاهد الجواد ملقى على الارض فان ميسون لم تشأ ان تصدق ان جوادها قد سقط وجعلت تردد وتعيد :

ـ « لكن جوادى سيفوز ٠٠ سيفوز ٠٠٠ »

قمنا بعد ذلك ومشينا مطرقين صامتين ٠٠ التصقت بى فاحطتها بذراعى٠٠ انا نفسى ازددت تعلقا بفكرة المساء الجميل ٠ وانبثق أمامنا فى نفس اللحظة ذلك الرجل « وجه الحصان » فشعرت نحوه بكراهية لا تقاوم ٠٠ لكنا تابعنا طريقنا صامتين ٠

حسن نصر



بقلـم : مصطفى الفارسى

فرغ من مطالعة اليوميات التى بين يديه فاعتراه نوع من الذهول · انه يعيد قراءة ذلك الكراس الذى حافظ عليه اكثر من عشرين سنة فيتساءل عن امـر ذلك الشاب الغريب الذى عرفه فى صباه واحتـرمه واحبـه والذى كتب تلك الصفحات فى بيت عتيق على ضوء مصباح بخيل وفى غرفة كانت تاوى مائدته ومضجعه ومكتبته معا · غريب امر تلك اليوميات التى تتحدث عن الحب فتغرى وعن الامم فتؤذى وعن الحياة ··· حياة كالقبر المفتوح ضيقـة الارجـاء لكنها متطلعة الى السماء الى النور الى الهواء حياة كذلك الزقاق الذى افنى نعال صباك والذى طرقت كل باب من ابواب منازله ولوثت بالحبـر او الطباشير او الفحم كل جدار من جدرانه · زقاق لفظته المدينة فالقت به عرض السور الهرم فلم يبلغ جل منازله ماء الحضارة ونور الكهرباء ، ينام كالصدفة فى غياهب الخضم فى سكون ورتابة بعيدا عن ضوضاء الشوارع ومحركات السيـارات · ذلك الزقاق ··· ها هو الليلة يعود اليه بعد عشرين سنة · وتلك النـافذة ··· نافذة غرفته المطلة على الزقاق ·· نافـذته التى تشـرف على سطحين ·· انه يعرف كل حلقة من حلقات حديدها المشبك الجميل · نافذة غرفته اجمل نافذة فى الزقاق وغرفة صباه وطفولته اجمل غرفة فى البيت · يغمرها نور الشمس ساعات من النهار وتنفذ اليها اشعة القمر طول الليل ·· وكان القمـر ··· القمر مؤنسه وجليسه ورفيق صباه ومستودع احـلامه ·· القمـر كان فكان الحلم وكان الحب وكان الموت ·

شخص ببصره فى ذلك الكراس الذى كادت تلتهم اوراقه الرطوبة وامعـن

النظر فى الصورة الملصقة على الغــلاف ثم نهض متثــاقلا وفتــح النــافذة على مصراعيها فغمر الهواء وجهه وصدره وساعديه • كان الجو معكرا نديا وكانت السماء حالكة حزينة • ارتعدت فرائصه فقبض وجهه فتكشر فى عبوس لكنه تجلد وآثر برد الشتاء على دخان السقائر التى واكبت سطور اليوميات فى تلك الشهرة وكان الكراس سميكا • اخذ يحملق فى السماء الداكنة ••• فى نقطة معينة من السماء ••• ثم اغمض عينيه فى مضاضة وارتفعت يداه الى النافذة فأوصدها والتحق بفراشه لينام • اطفا النور واشعل سيقارة ••• السيقارة مدرجته للنوم • وشخص ببصره فى النافذة فلم يطرف •

ـ ماذا فعل التراب بقمرى يا ترى ؟ ماذا فعل التراب ؟

للقمر فى نفسه مكان وفى عينيه وحتى بين يديه •• لقد ملأ القمر ارجاءه واركانه ومحيطاته منذ الصغر • وانه ليشعر بالكآبة عند قدوم الليل اذا غاب القمر •• وانه ليعرف ذلك الشعور معــرفة المعــاشرة وقد عــاشره اكثر من عشرين سنة •

ـ ماذا فعل التراب بقمرى وماذا فعل الناس بقمرك يا أخى الهادى ؟

عادت به الذكرى الى الزقاق الى غرفة طفولته الى النافذة والى سطحى سيدى عبد الرحمان وسيدى غلاب والى القمر • الزقاق مظلم كالحيرة كالضياع وربما كان اكثر اشراقا فى الليل منه فى النهــار اذ تضيئه نافذتــان ••• نافــذته ونافذة بابا مزيود الهرقام • ثم ان البطحاء فى منتهى الزقاق والبطحاء مضاءة على حساب البلدية ـ او البيليك كما كان يقال ـ من السابعة مساء الى الخامسة صباحا • بطحاء « الحميدية » ملجا تلاميذ الزقاق ـ او كلاب السوق كما كانت تسميهــم « امــك عيشوشة ••• » ـ ينتصبون فى رحابها كل ليلــة ، يعدون دروس غدهم ويراجعون دروس الامس • لكم كان يود ان يلتحــق باتــرابه فى البطحاء كل ليلة •• لكن •• أنى له ذلك ومنزلهم يغمره نور الكهرباء ووالده لا يغادر البيت بعد غروب الشمس وامه كالدجاجة الحــريصة على فــراخها لا يشغلها عنه شاغل ••• فهو وحيدها ـ كما تدعى ـ وان كانت له اختان ••• لكن •• متى كان للبنات شان فيقرا لهن حساب ؟

لكم كان يهتز لصيحات الاطفال فى البطحاء وكم كان يـدفعه الشـوق الى الجلوس اليهم بعد اعداد الدروس ! !

كانت النافذة ملجاه ومأواه ٠٠٠ يتربع فى بطنها ومنها يشرف على الزقاق وعلى سطح سيدى عبد الرحمان مبـاشرة ٠٠٠ وسطـح سيـدى غـلاب على يساره ٠٠٠ لولا منزل بابا مزيود ٠٠٠ لولا غرف البنات فى الطابق العلوى من المنزل لامكنه ان يشارك اطفال البطحاء فى اسمارهم والعابهم من شرفته تلك كما لو كان بينهم ٠ طابق البنـات يشـرف بـدوره على سطـح سيـدى عبد الرحمان فينتصب دونه ودون قسـم من البطحـاء ٠٠٠ انه لا يصيب من حياة البطحاء ومن نور البطحاء الا القليل لكنه يقنع بالسمع وبذلك البصيص المرتعش الضئيل الذى كان يصله بالاطفال كخيط من حرير ٠٠٠

خيط على كل حال ٠٠٠ خير من لا شىء ٠

انه ليحمد الله الذى جعل سطح سيدى غلاب على يساره والبطحـاء خلف السيد الولى مباشرة ٠ انه ليحمد الله على موقع غرفته من البيت وموضع نافذته من الغرفة فقد أبى والده الا ان يسكنه تلك الغرفة التى يحرسها وليان صالحان٠

ـ غرفتك يا ولد لا يدخلها طبيب ٠٠ لقد وهبتك الشمس والهـواء ٠٠٠ وهذان الوليان يحرسان نافذتك فيحميانك من كل شر ٠٠٠ ســورك منيــع وحصنك حصين ٠

كان والده يردد على مسمعه هذا اللحن فى كل مناسبة وكان هو ينطلق الى البطحاء من جوف نافذته فى كل ليلة ٠

كان يكره المطر ويجهر بذلك فيغضب اباه وينغص عليه فرحته بالغيث وقلما كانت تجود السماء ٠

كان ابوه حضريا بانتسابه للمدينة فهو صفاقسى اصيل ـ قلبا وقالبا ـ كما كان يقول ٠٠٠ لكنه كان بدويـا بالضرورة ـ وللضرورة احكـام ـ فله زويتينات فى ضاحية « عقـارب » ومنها جرة الـزيت وجزة الصوف فى آخر السنة ٠ فلم يكن ليفهم مرد كره المطر عند ولده ٠٠ ولكن الطفل اذ يكره المطر

فالأسباب يجهلها أبوه ويعرفها هو . ومن أسبابه ان المطر مجلبة للوحشة عندما يلتحق اطفال البطحاء بمنازلهم ويعم السكون الزقاق من اقصاه الى أقصاه .. فلا جليس ولا انيس ... وانيسه عادة القمر . لكن ماذا يفعل المطر بالقمر ؟

سأل والده يوما عن مكان القمر .. من اين ياتى والى اين يذهب ؟

ـ القمر فى السماء .

ـ وكيف الوصول اليه يا أبى ؟

ـ الوصول اليه ؟ اتريد ان تلتحق بالقمر كالخادمة الزنجية التى ... دعنى بالله ودعك من كل هذا ... سل امك .. فهى ادرى بالقصة منى .

ـ اى قصة يا أبى ؟

ـ قصة الزنجية يا ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وكاد يشتمه فى ذلك اليوم اذ كان يضبط بعض الحسابات فشغله واخل بحساباته ...

وسأل أمه :

ـ ماذا تصنع الزنجية فى القمر يامى ؟

ـ علقها الله من اشفارها هناك لانها استهانت بقطعة من الخبز ... اتعلم انها اقترفت اثما ؟ حرام يا ولدى ان نلوث الخبز .. حرام .. ان عقاب الله شديد .

قصة الزنجية هذه حيرته وملأت احلامه اكثر من سنة . لولا ان انقذه الهادى ... صديقه الهادى ... صاحب اليوميات .

كان الهادى شابا يناهز العشرين وكان يسكن ناحية من البطحاء مع والده وامه حلومة وأخت أو أختين .. هو يعرفهم جيدا ... فهم فقراء مساكين وكان والده يحسن اليهم فى المواسم والاعياد وخاصة فى ميسرة الزيتون . وكانت « أمك حلومة » تتردد على بيتهم من حين لآخر لرمى القمح على الغربال او لتنقية الشعر من رجلى أمه ...

اما تنقية الشعر فأمر واضح واما القمح والغربال فلم يكن الطفل ليفهم لهما مرمى فالقمحة السوداء لها وظيفتها وكذلك الصفراء وحتى بقيـة الحبـات ٠٠ فقد كانت لكل منها وظيفة ٠ وعبثا حاول ان يفهم ٠٠ فلا امه ولا امك حلومة اسدت له من البيانات ما يشفي الغليل ٠٠٠ فكل ما يعرف عن رمي القمح ان امه كانت تستدعي جارتها حلومة في ساعات الضيق والحيرة ٠٠ وكانت امه كثيرة القلق مكتئبة ابدا ٠٠٠ رمي القمح حمـاقة لا معنى لها وكان الطفـل لا يؤاخذ الكبار على سخافاتهم ونـزقهم في كل امـر ٠ من ذلك انهم كثيـرا ما يسالونه عما سيفعل عندما يصبح كبيرا ٠ كان يجيب في كل مرة ولسان حاله يقـول :

ـ ليس هذا مما اباليه ٠٠ لكن ما دمتم تستفسرونني فساكـون حـلاقـا كأبي ٠٠٠ او طبيبا كذلك البطين القباع الذي يعود امي مرات في الشهر ٠٠٠ او تاجرا ٠٠٠ او ٠٠٠

ويستحثه الكبار فيجيب في تيه دون تردد ٠

ـ سأكون بحارا وطيارا ٠

ويضحك الكبار ٠٠٠

لماذا يضحك الكبار هكذا دائما ٠٠ على حسابه ؟ ينطوي الطفـل على نفسه وكانه يزن سخافة الكبار في ميزان ٠ ماذا سأفعل عندما اكبر ؟ هذا والله عين السخف وعين الافراط ٠٠ ليس لي ان افعل شيئا عندما اكبر فسأكون كبيرا وسأحقق بذلك الامل وابلغ المقصود ٠ الهدف ان اكبر ٠٠٠ فاذا كبرت ٠٠٠

الكبر ٠٠٠ انه يطير اليه طيرا ٠٠٠ يهفو اليه قلبه في جوع ولهفة ٠ هدفه ان يكبر ٠٠ ان يكبر سريعا ٠٠ الهادي ابن امك حلومة بلغ سن العشرين ٠٠ فهو كبير ولا بد انه حقق كل امنياته ٠ انه يعرف الهـادي جيدا ويعـرف انه معلم في مدرسة الشباب ولم تكن مدرسة الهلال التي كان يزاول بها تعلمـه بعيدة عن المدرسة التي كان يدرس بها الهادي ٠ ثم ان الهادي صديق معلمه سي عبد الرازق معلم السنة الثالثة ٠٠٠ كالهادي تماما ٠

لقيه ذات يوم في الزقاق وهو يتأهب لدخول دار بابا مزيود الهرقام فسبقه بالتحية كعادته واستوقفه ٠ كان يريد ان يساله عن القمر ٠٠ عن ماتاه ومآله

وعن الزنجية التى شنقها الله من اشفارها ‥ كان يريد ··· لكن الهادى قطع عليه سير افكاره اذ طفق يسأله عن الدروس وعن صديقه معلم السنة الثالثة سى عبد الرزاق وعن العودة الى المدرسة بعد قضاء العطلة ··· كانت العطلة قد اوشكت على الانقضاء فعلا ‥

ذكره الهادى بموعد اكتوبر المحتوم فنغص عليه عيشه وحبس الكلام فى حلقه فلم يكن منه الا ان ودعه وانصرف · التحق بغرفته فى طابقه العلوى فلم ينزل الا عند قدوم والده وانتصاب مائدة العشاء · ولم يسهر تلك الليلة مع العائلة فقد صعد الى ملجئه فى النافذة ·

كان القمر فى تمامه وكماله ‥ كرة وضاءة تكاد تمس قضبان النافذة ‥ كان القمر فى متناول يده ‥ كادت يداه الصغيرتان تقبضان عليه ‥ تجذبانه الى الغرفة ···

ـ لله ما ابدع القمر ··· لو استطعت ان المسه ولو مرة واحدة ··· هكذا ··· من النافذة ‥ من فجاج قضبان الحديد ‥ سوف لا اكسره كما تفعل السماء طول الشهر ‥ انا لا احب الهلال ‥ الهلال لا يضىء كالقمر ‥ اريده ···

انحبس الكلام فى صدره فجأة وتبدد الحلم ··· اشباح على السطوح ترعد فرائصه فتصطك ركبتاه من اثر الرعب ··· اتراه قد اقترف اثما ؟ سوف يعلقه الله كالزنجية من اشفاره هناك فى جوف القمر ··· لكن ترى اى اثم اقترف ؟ انه لا يدرى ‥ عليه ان يلتحق بفراشه وان يدثر ··· يدثر من الراس الى القدم ‥ يدثر حتى تخمد انفاسه ‥ انه يرتعد من الهلع ‥ من تلك الاشباح التى تراءت له على سطح سيدى عبد الرحمان · انه خائف ‥ حتى من القمر ·

كان عليه ان يسأل المعلم عن القمر · كان عليه ان يدبر الامر سرا ··· فالقمر لا يسرق هكذا جهرا · القمر فى السماء ··· والله فى السماء ··· والله شديد العقاب ··· انه يحاول ان ينام لكن كيف له ان ينام ؟ لن يستطيع · كان يتحرك فى سريره ‥ يتحول على فراشه من جانب الى جانب ‥ كان يحاول ان ينام فلا يستطيع · طوى مخدته ليلبد بها راسه فالصق بالمخدة

اذنه اليسرى ثم اذنه اليمنى ٠٠ لكن فى كلتا الحالتين دقات قلبه تضرب صماخ اذنيه فى عنف٠فاستلقى على ظهره ليبعد عنه ذاك الشغب لكن سقف الغرفه بان له بالمرصاد٠ فقد تراءت له على صفحته المخدوشات من اثر الندى صورة شيطانية واشباح ٠٠ النمل يدب على ساقيه ٠٠ يدرج الى ركبتيه ٠٠ الى فخذيه ٠٠ اصبحت رجلاه عالة على جسده ٠٠ حملا لا يطاق ٠ انه لن ينام فى تلك الليلة ٠

نام الطفل على الجمر ٠٠٠ على الابر ٠٠٠ وكم كانت دهشته عندما فتح عينيه فى الصباح الباكر فوجد النافذة مفتوحة على مصراعيها ٠٠٠ كان يعتقد انه اوصدها قبل ان يلتحق بفراشه ٠٠ انه ليذكر انه اوصدها فعلا ٠٠٠ يذكر ٠٠ لكن كيف يذكر وقد عبث الرعب بركبتيه وبرح براسه وقلبه معا ٠٠٠ انه لا يذكر شيئا مما وقع البارحة ٠٠ سوى ٠٠ نعم ٠٠ سوى الاشباح ٠

انه ليذكر الآن بكل وضوح كيف امتد السلم على الزقاق ليصل بين سطحى سيدى غلاب وسيدى عبد الرحمان ٠ فقد جمد الدم فى جسمه فلم يستطع ان يتحرك من مكانه ٠٠٠ كان كالسجين المغلل وكانت النافذة قفصه ٠٠٠ مضت ساعة من الزمن ثم ارى شبحا يتحرك على سطح سيدى غلاب ويمشى على السلم كالدابة على اربع قوائم ٠ وما ان وصل الشبح الى سطح سيدى عبد الرحمان ونهض على رجليه حتى بدا شبح ثان على سطح بنات مزيود ٠ جلس الشبح على شافة السطلح وقدم رجليه ووجهه عرض الحائط ثم انزلق هكذا وما لبث ان التحق بالشبح الاول ٠ وعندها اخذ كل واحد منهما بيد الآخر واطلقا ساقيهما للريح فى اتجاه ٠٠٠ فى اتجاه القمر ٠ انه يذكر كل ذلك جيدا ٠ فقد بدا اضطرابه وتوتر اعصابه منذ عبر الشبح الاول الزقاق واصطكت ركبتاه وارتعد من الخوف عندما اختفى الشبحان ٠٠ انه يذكر كل ذلك ٠٠٠ ويذكر ايضا ان السلم بدأ يمتد على الزقاق عندما اخرج يديه من قضبان النافذة ليختلس القمر ٠٠٠ كل شيء واضح والاثم لا غبار عليه ٠ سيدى غلاب وسيدى عبد الرحمان يحرسان القمر ٠٠ وقد كانا على علم من نواياه ٠٠٠ لولاهما ٠٠٠ لولاهما لسقط القمر بين يديه وكانت الطامة الكبرى ٠٠٠ ماذا سيصبح الكون لو سرق القمر ؟ وماذا يكون المآل ؟ مآل أبيه وأمه وأختيه ومآله هو طبعا ٠٠ سوف يعلم الناس انه اختطف القمر وسيقتحمون منزلهم ويصعدون الى غرفته ويشنقونه ٠٠٠ الامر جلل ولا بد ان يفاتح فيه احدا ٠٠٠ فلو فاتح أباه ؟ لا ٠٠٠ سوف يضربه ضربا مبرحا ٠٠٠ سوف لا يتفهم الوضع ٠ انه لم

يسرق القمر لكن خطر له ذلك والاعمال بالنيات كما يقول ابوه ··· لو فاتح امه في الامر ؟ انها ستبكي وتنتحب وسيعاودها صداع الراس « الشقيقة » كما تسمى ألمها الغريب ··· وما عساها تصنع لتخرجه من المازق · ستتضرع الى الله ··· ستسأله الصفح والغفران ·· لكنها امرأة ضعيفة فما حولها اذا أراد الله · نفى له ملجأ واحـد ··· المعلـم الهـادى ··· كان عليه ان يستشيره ويستطلع رأيه قبل ان يقدم على ما ···

وقفت خواطر الطفل عند هذا الحد ··· لم يجرؤ على مصارحة نفسه بان ما اقدم عليه كان السرقة عينها ··· انه اراد ان يختطف القمر فلو لم يفاجئه الوليان الصالحان لكان اختطفه فعلا ···

– سى الهادى ··· اتسمح لى ان استشيرك فى امر هام ؟

– امر هام ··· خير ان شاء الله ·

– دعنى احدثك يا سى الهادى ··· لكن عدنى ان يبقى احديث بيننا ·· عدنى قبل كل شىء ·

– ماذا وقع ··· حدثنى ·· سرك هذا لا بـد ان يكون خطيـرا ··· انك تضطرب ·

– نعم يا سى الهادى ··· سر خطير ·· اتعلم انى ·· اتعلم يا سى الهادى انى اردت ان اسرق القمر ؟

– تسرق القمر ؟ وما ستصنع بالقمر ؟ قل لى ··

– اطل القمر البارحة على غرفتى ·· حتى كدت ألمسه بيدى ·

وقص الطفل على المعلم ما حدث ونوه بكرامة الواليين الذين حالا دونه ودون اقتراف جريمته الشنعاء ··· قال انه رآهمـا على كثب وان لحيتيهمـا كانتـا تكسوان ذقنيهما وتسترسلان على صدريهما كخيوط من حرير ··· ووصف له مشيتهما وحتى القميصين الذين كانا يرتديانهما ··· قمـاش ابيض ناصـع يفضح حلكة الليل ··· كان الشيخان يكوئدان من الكبـر ··· قال الطفـل للمعلم كل شىء ولم ينس اليه طبعا السلم وزحلقة احد الشبحين من اعلى سطح بنات مزيود الى سطح سيد عبد الرحمان · واسر اليه ايضا انه فى حيرة من امر

سيدى عبد الرحمان ·· ماذا كان يصنع على سطح الشيخ مزيود ؟

ـ الاولياء فى حاجة هم ايضا الى التنزه واستنشاق الهواء الطلق ··· الاولياء كالبشر تماما ·· يتنزهون ·

قال المعلم ذلك بلهجة لا تخلو من جدية ورصانة · ولم يلاحظ الطفل على محياه ما كان لاحظه فى بداية الحديث من استخفاف واستنقاص وأيقن ان المعلم قد قدر الامر حق قدره وانه يعتزم مساعدته والاخذ بيده عندما سمعه يقول لنفسه ·

ـ سر خطير فعلا ·· غاية فى الخطورة ·· لكن ·· لا تخف ·· سنجد حلا يرضى الطرفين ·

ـ ستجد حلا يا سيدى المعلم ؟ ستجد الحل حقا ؟

ـ الامر واضح ··· واضح جدا ··· لقد فهمت الآن كل شىء : انت تريد القمر والشيخان يحرسانه ويمنعانك من الوصول اليه ··· هناك حل وسط ··· على ان تعدنى بدورك انك ستقبله مسبقا ·

ـ اعدك يا سيدى ·· بحق سيدى عبد الرحمان وسيدى غلاب ··· اعدك مسبقا ·

ـ طيب ··· اسمع الآن ··· اسمع جيدا ما سأقوله لك : انا اهديك القمر ··· امهلنى يوما او يومين وسأتيك بقمر يغنيك عن كل الاهلة والاقمار ··· دع قمر الناس للناس وخذ لك قمرا غيره خذ لك قمرا خاصا ·· سأصنعه لك بيدى · وسيكون لك دون سواك ·· هدىء من روعك الآن وخذ هذه الثمار اللذيذة ··· لقد قطفتها بنفسى منذ ساعة من بستان عمى محمود ··· اليوم يوم الجمعة وانا اخصصه للوالدة ·· آتيها بالثمار كل يوم جمعة من بستان أخيها ··· وقد سبق لك ان اكلت منها ··· خذ ·· كل العنب والتين ·· ودع الامر بين يدى ·· سآتيك بالقمر كما وعدتك بعد يوم او يومين ·

ومد المعلم يده الى الطفل مودعا ·· لكن الطفل استوقفه منبها :

– لقد نسيت الشرط يا سيدى •• وقد قبلت شرطك مسبقا •

– آه •• الشرط •• نعم •• هناك شرط يتوقف عليه نجاح الخطة •• الاقمار كالنساء تماما غيورات حسودات ••• وانا اخاف عليك من قمر الناس ••• أخاف ان تغار عليك من الضرة •• داء الضرائر يا أخى فى النساء والاقمار على السواء ••• سآتيك بقمر جميل على شرط ان توصد مصراعى نافذتك بداية من الليلة • عليك ان تهمل قمر الناس قطعا ••• وان تكتفى بقمرك••• يمكنك اذا شئت ان تطلعه على الزقاق كله او بعضا منه فى الليالى الحالكة حذاريك أخى قمرين فى ليلة واحدة •

ولاحظ الطفل كيف يجيب ذوو الاخلاق الطيبة على أسئله وكيف يجتهدون فى البحث عن الاجابة وعن ايجاد الحلول • وقال فى نفسه : « لو سألت احدا بالبيت لما وجدت اذنا صاغية ••• » فملأ الاعتزاز صدره حتى كاد ينتفخ ••• ولم ينم فى تلك الليلة الا بعد تفكير ••• فكر الطفل طويلا فى ظلام الغرفة وقد جلس على سريره ويداه تحوطان رجليه وذقنه بين ركبتيه •••

شعر لاول مرة بالكيان وكان شعوره واضحا لا يشوبه شك او تردد ••• انه هو ••• وهو فى غرفته جالس على فراشه يفكر ••• وهو موجود •• هو موجود وليس هو باحد غيره • انه يعرف ان الحصان حصان وان القط قط •• يعرف ذلك جيدا ومن امد بعيد ••• وها هو اليوم يثبت وجوده هو ككائن حى يتميز على الحيوان ويتفوق عليه ••• الحيوان لا يسأل ولا يجيب احد عن سؤاله •• اما هو !!• واثنى على المعلم واقسم انه لن ينسى فضله عليه ••• ثم نام بعد ذلك وعلى وجهه ابتسامة •

واستيقظ فى الصباح ولم تغادر الابتسامة ثغره •

ولم يخلف الشاب وعده فقد اتى بعد يومين يتأبط صندوقا وصعد الدرج برفقة الطفل ودخلا غرفته المطلة على الزقاق واوصدا باب الغرفة وراءهما ثم مصراعى النافذة ••• فساد الغرفة ظلام الليل •

وفتح الشاب صندوقه فاخرج منه خيطا كهربائيا شده الى مأخذ النور فاذا القمر بين يدى الطفل كابدع ما تكون الاقمار واذا السماء من حوله مرصعة

بالكواكب ··· كواكب مختلفة الأحجام متفاوتة فى الأضاءة كالأجرام الدرية تبرز من بينها نجمة القطب كالياقوتة الفريدة ·

ـ لله ما ابدع القمر ·

كان الطفل ـ صاحب القمر ـ فى نخوة دائمة منذ ان احرز كوكبه الجميل ··· وعجب من امر آبويه كيف لم يتفطنا الى الانقلاب السعيد الذى طرأ على مجرى حياته ·· ولكنه آثر ذلك على ان يفضح أمره ··· وقال فى نفسه : « لو راى الناس قمرى لأنصرفوا عن القمر ولتألبوا ضدى وابتزوا قمرى · خير لى ان اكتم السر » ·

ومنذ ذلك اليوم غفل الطفل عن النافذة فلم يركبها ولم يفتح مصراعيها قطعا ·

وتتابعت الايام والليالى والقمر فى غرفة الطفل يحرس نومه ويرعى احلامه ·

وتمتنت صلاته بالشاب المعلم ولى نعمته ·· لكن لم يجرهما الحديث بعد ذلك اليوم الى القمر · فمن يدرى ··· للجدران آذانها وكان السر على جانب من الخطورة يقرأ له الصديقان ألف حساب ·

وذات يوم ··· بدأت المشاكل ···

رأى الطفل ـ ويا هول ما راى ـ راى صديقه المعلم يتخبط فى قبضة بابا مزيود وكان الشيخ يعنف به باشد ما تكون القسوة ··· سمع الصراخ فى بهو دار مزيود ثم تبع الصراخ لكم ولطم واضطراب شديد · وفجأة فتح الباب على مصراعيه وخرج المعلم من الدار مهرولا والشيخ مقتف اثره يركله برجله ويدعصه بعكازه كما تركل الدواب وتدعص الحشرات ·

وثارت ثائرة الطفل فهاجم الشيخ وطفق يركله برجليه وهو يصيح :

ـ حرام عليك يأبى مزيود ·· حرام عليك ·· ماذا فعل سى الهادى حتى يستحق منك هذا ·· كيف تضرب معلما ·· يا محمود ·· يا زينب ··

يا مختار ٠٠ يا أولاد البطحاء ٠٠ بابا مزيـود يريد ان يقتل سى الهـادى ٠٠ النجدة ٠٠ النجدة يا اخوانى ٠٠٠

لقد اثر ذلك الحادث فى نفس الطفل ايما تاثير ٠٠٠ لم يدر ما دفع الشيخ الوقور الى هذا الشطط ٠٠٠ كل ما علق بذهنه من الصـراخ والسبـاب ان الشيخ عير الهادى بفقره وضيق حال والديه ٠٠٠ سمع الشيخ يقول :

ــ اين الثـرى من الثرايـا يا فاسـق ٠٠ يا جبـان ٠٠ سأقتص منـك ٠٠ الشرف كعود الكبريت ٠٠٠ يا سـارق اعراض النـاس ٠٠٠ يا سارق ٠٠ يا سارق ٠٠ تموت ولن تنال « قمرا » ٠

سمع الطفل كل ذلك فاشتبه عليه الامر ولم يفهم شيئا ٠٠٠ ايكون الشيخ قد وقف على جلية الامر ؟ ايكون قد كشف عن السـر ؟ واذا كانت الحـال ما تصوره فهو ايضا فى الدرك لانه شريك الهادى ٠ وعليه ما على شريكه من شتم ولعن ٠٠٠ ايكون من حراس القمر ٠٠٠ ايكون هو الذى تسلل من سطح البنات الى سطح سيدى عبد الرحمان ٠٠٠ لا بد انه كان على بينـة من المكيـدة منذ البداية ٠٠٠

كل هذه الاسئلة التى تبادرت الى ذهن الطفل فى تزاحم واضطراب جديرة بالتمحيص والتدقيق ٠٠٠ لكن هل من مجيب ؟ المعلم ٠٠٠؟ لقد تحصن ببيته فلم يره الطفل منذ ذلك اليوم العصيب ٠٠ طرق باب دار امك حلومة مـرارا وتكرارا فلم يجبه احد ٠٠ ايكون صديقه قد هاجر الى بستان عمه محمـود ؟ هاجر واختفى ؟ كان على المعلم ان يحدثه ٠٠٠ ان يفسر له موقف الشيخ منه ٠٠ كان عليه ٠٠ لكن ٠٠ لعله آثر الهروب من الموت ٠٠ من القصاص ٠٠ للمعلم اسبابه بدون شك وما عليه هو ٠٠٠ الطفل الصغير ٠٠٠ الا ان ينتظر عـودة صديقه الكبير من البستان ٠٠٠ لو كان يعرف البستان لا لتحق به على الفور ، لكنه لا يعرف ٠٠ وما ذنب من لا يعرف ؟

فكر الطفل فى ذلك العالم الغريب الذى يحوطه كالطوق الثقيل ٠٠٠ فكر فى المدينة ٠٠٠ فى الشوارع والاسواق ٠٠ فى عالم الكبار الذى تحركه اياد خفية هناك خلف اسوار المدينة بعيدا عن الانهج والازقة التى يعرفها٠٠٠ عالم مجهول خطير ينام كل ليلة على خفاياه واسراره ٠٠٠ كعالم الخرافات ٠٠ لو

كان كبيرا ·· لعرف عن ذلك العالم ما يشفى الغليل · وقال متمتما فى حسرة وهو يحدث نفسه : « عندما اكبر ·· يجب ان اكبر ·· ان اكبر سريعا ··· » لكنه لم يستطرد · ·فهل من فائدة وهو صغير ··· صغير ···

لكل مشكلة بداية وقد كان ذلك اليوم بداية لكل المشاكل ·· سأل أمه عن سبب المشاجرة ·· عن غضب الشيخ ·· عن تعنيفه وشططه ·· فنهرته وانبته · انه يتداخل فيما لا يعنيه ·· لكنه لم يتراجع · فقد سألها عن الفسق ··· ماذا يكون الفسق ؟ فلطمت خديها وكادت تعاودها « شقيقتها » الملعونة · لقد انفجرت فى وجهه كالبركان كالمطر الغزير ··· سألته بدورها عن الفسق ·· من علمه مثل هذا القسط فى القول ؟ ومتى كان لطفل فى سنه ان يسأل عن الفسق ··؟ وعبثا حاول الطفل ان يسكتها ··· ان يهدىء من روعها ·· فقد سمع هذه الكلمة من فم الشيخ فى ذلك اليوم المشؤوم ··· لكن أمه لم تقتنع ··· انفجرت كالبركان كالمطر الغزير ···

اليوم المشؤوم ··· تبعته ايام ·· ايام وايام ···

انه ليذكر صبيحة يوم مطير ··· كان والده يكاد يطير من الفرحة ···

— الزويتنات ·· الزويتنات يا ليلية ·· طامة عامة ·· خير الله كثير ·· يا رب ارحمنا ··· الزويتنات يا ليلية ·· طمت وعمت ·

ليلية ابنة « أبى ليلة » لقب أمه المحبب الى نفس أبيه يستعمله فى مناسبات·· وهل خير من تلك المناسبة ؟ ان والده يطير من الفرحة ··· من نشوة الغيث ·

وكيف لا يذكر صبيحة ذلك اليوم المشؤوم ··؟

هرول من هرول وصاح من صاح واكتض الزقاق بالخلائق ولم يلبث ان اطلع على ما يهيج القوم وما يميجهم فى تلك الصبيحة ··· صديقه الهادى ··· المعلم الشاب ، شريكه فى ·· فى ·· وجد فى غرفته ·· مشنوقا · نعم ·· كان مشدودا الى السقف تطوق رقبته عمامة والده عمك سليمان ·· كان معلقا هكذا من عنقه ورجلاه فى الفضاء ·· كالديك الميت ·· لا يتكلم ولا يتحرك ··· كالديك الميت تماما ··· لماذا قتل نفسه ؟ سؤال سيلقيه الطفل فى ذلك اليوم ··· مرات ومرات ·

سأل احد الجيران عن ·· « موت » صديقه الهادى ·· فقال : « الله اعلم » وسأل امرأة فقالت : « خير ··· مات وارتاح » وزادت « وراح » وسأل أحد الاطفال فقال مسرا فى اذنه « قيـل انه سـرق قمـر أبى مزيـود ·· فقتله الشيخ ··· البوليس على قدم وساق ·· »

كل هذا لم يقنع الطفل بل يزيد فى حيرته وفضوله ··· عليه بأمـه فانه قادم فى تلك الصبيحة على كل شىء ··· حتى على « الشقيقـة » اذ لا مفـر منها ·· لكن هذا لا يهم ·· فقد قتلوا صديقه ولا بد ان ياخذ بثاره ·· سيقتل من قتله ··

ـ قولى يامى ··· لماذا شنقوا الهادى ؟ لماذا مات ؟

ـ يموت او يشنق ··· الامر امره ··

ـ نعم ·· الامر امره ·· لكن من شنقه ؟

ـ وماذا تريدنى ان اجيب ·· من زرع حصد كما يقولون ·

ـ وماذا زرع يامى ··؟

ـ دعنى من اسئلتك ولا تلح ··· قتل نفسه لانه كافر ·

ـ كافر ؟·· ولماذا كان كافرا ؟··

ـ صديقك المشؤوم كافر ·· لانه ·· لانه قتل نفسه ·· افهمت ·· من قتل نفسه فهو كافر ··· اتركنى الآن وشأنى فهـذه أمـور لا تعنيـك ··· آه ··· راسى ···

ـ آه ·· هذه شقيقتك تعاودك ·· سامحينى يامى ··· سامحينى ·

وهكذا مات الهادى ودفن ولم يظفر من موته بطائل ·· مات الهادى فى يوم مطيـر فى يوم مشؤوم ·

ولم يمض اسبوع حتى ماج الشارع من جديد وامتلا الزقاق وعلا الصراخ والهرج ··· هذا الموت يغتال ثانية ·· قيل ان القمر ··· قيل ان ابنة مزيود

وجدت ميتة على سطح سيدى عبد الرحمان ٠٠ مهشمة الرأس تقطر دما كالفرخ المذبوح ٠٠٠ كشاة الاضحى ٠٠٠ هل زلت بها القدم فوقعت على السطح ٠٠ هل سقطت من سطح البنات وهى تنشر الى الشمس عول السنة من طحين القمح والشعير ؟ سأل الطفل وسأل واعياه السؤال فلم يظفر بطائل ٠٠ قيل « والله اعلم » ٠٠٠ الله اعلم ٠

كان الناس يبدأون كلامهم هكذا ويقفون عند هذا الحد ٠٠٠ قيل ياخى ٠٠٠ والله اعلم ٠٠٠ قيل يا بنى والله اعلم ٠٠٠

ماتت سابعة اقمار الشيخ واجملهن واصغرهن واذكاهن ٠ لقد علمها الهادى قواعد الاسلام الخمس ولقنها اصول العقيدة والدين ٠٠ وقال الناس وهم يشيعونها الى المقبرة ٠٠٠ « انها ملاك طاهر وستلاقى وجه ربها عذراء ٠٠٠ طاهرة ٠٠ »

ولم يفهم الطفل ما كان يقوله الناس من حوله ٠٠٠ كان الغموض كالليل دون القمر ٠٠ داكنا ٠٠ سمكيا ٠٠ ثقيلا ٠٠

وقع كل هذا فى بحر اسبوع على مراى ومسمع من الطفل فاحتار فى الامر وفكر مليا ٠٠٠ فكر فى كل شىء ٠٠٠ وبدأ من البداية ٠٠ من السلم الذى امتد على الزقاق ٠٠٠

فكر فى الاولياء وهو يشخص ببصره فى سقف غرفته فى تلك الليلة ٠٠٠ كان السقف مفتوحا امام عينيه الساهرتين كالكتاب المصور ٠٠٠ برز له من بين وشوم السقف وتجاعيده وغضونه شيخ وقور ٠٠٠ لحيانى واسع الحدقتين ٠٠ فاغمض عينيه وعندما فتحهما لم يجد نفس الرسوم على السقف فقد ضاعت تقاطيع وجه الشيخ فى صورة حيوان غريب كالجمل الرابض ٠٠ كفيل البحر ٠٠٠ كليث عفرين ٠٠ ولم يشخص فى الصورة طويلا بل اخذ يجول ببصره فى انحاء السقف كانما هو يفتش من بين الرسوم والخطوط عن صورة ارق وامتع ٠٠٠ ولم يلبث ان صور له الخيال طفلا فى سنه يغمر الهواء وجهه فيملأ شدقيه ٠٠٠ كان الطفل ينفخ فى كفه وقد قبضها ٠٠٠ كرة خيالية ٠٠ نفخها طويلا فملصت من بين اصابعه وأصعدت فى الجو كالسحاب الخفيف يذهب به الريح ٠٠ ثم اخذ الطفل يكبر ويكبر امام عينيه الذاهلتين

واخذت المنازل تصغر وتصغر تحت قدميه وهو يتعاظم كالمارد ويداه تلعبان بالنجوم والنجوم بين اصابعه كالفراشات كالنمل الغفير ٠٠٠ وطلع القمر ٠٠٠ فاحتل السماء احتلالا ٠٠٠

فكر الطفل فى الامر مليا ٠٠٠ وقال فى نفسه : « الناس لا يعرفون ٠٠ الناس يجهلون كل شىء ٠٠ القمر والاشباح والسلم وقمر الهادى والسر ٠٠ السر الخطير ٠٠٠ الناس لا يفهمون » ٠

الطفل يفهم الآن كل شىء ٠ الهادى سرق القمر ٠٠ وكان معلم ابنة مزيود ٠٠٠ ولا بد انه افشى السر واطلع تلميذته الشابة عليه ٠٠ فهى شريكة ثالثة فى الجريمة ٠٠٠ هذا هو سر القضية من اساسها ٠ وهو اعلم الناس بالموضوع ٠ فكيف ينكر على الكبار صمتهم والتكتم وهم لا يعرفون ؟ الطفل يعرف كل هذا ويعرف ايضا ان عقاب الله شديد ٠٠ فقد لحق العقاب صديقه الهادى كما لحق تلميذته الشابة وسيلحقه بدوره فى يوم ما ٠٠ بقى عليه ان يجد مخرجا من امره ٠٠ والا ٠٠ لا قدر الله ٠٠ فهو هالك حتما ٠٠ فى يوم ما ٠٠٠

ولم ينم الطفل بعد تلك الحوادث الا لماما ٠٠٠ كانت تتراقص امام عينيه الاشباح والسلاليم والاقمار والكواكب والمشانق والديكة والشياه وقد لطخت كلها دما ٠٠ كان الدم ينهمر امام عينيه كالمطر الغزير وكان أبوه ٠٠ يصيح ٠٠ ويصيح ٠٠ لم يكن مسرورا بالمطر فى هذه المرة ٠٠٠

ـ يا امراة ٠٠ يا امراة ٠٠ اين البنات اين الـ ٠٠٠؟

لم يذكر والده اسمه ٠٠٠ لعله لم يعد يتذكر اسم ولده ؟ ولد يستحق اللعنة ٠٠٠ ولد سرق القمر ٠٠٠ كيف يمكن ان يتذكره والده ؟

ـ انا هنا ٠٠ انا هنا يأبى ٠٠ انا ابنك ٠٠ ابنك الهادى ٠٠ الهادى ٠٠

ويستيقظ الطفل مذعورا ومرارة تلك الصيحات بفمه ٠٠ ويمسح العرق المتصبب من جبهته ٠٠٠ لقد غمر وجهه العرق او الدم ٠٠٠ انه لا يدرى ٠٠٠ انه لا يدرى حتى من هو ٠ لقد غاب عنه كل شىء ٠٠ حتى اسمه ٠

لم يعد يتذكر اسمه ٠٠٠ الهادى ربما ٠٠٠ لكن الهادى شاب فى العشرين من العمر او يزيد ٠٠ معلم شباب ٠٠٠ مات منذ ايام وشيعت جنازته وواراه الناس التراب وقد حضر الطفل دفنه وحثا عليه التراب كما فعل النـــاس ٠

الهادى قتل نفســه لانه كافر وهو كافر لانه قتل نفســه ٠٠ هكذا قالت أمه وقولها ما زال يرن فى اذنيه ٠٠٠

الهادى مات وهو لن ينساه ٠٠٠ وكيف ينساه ؟ انه يحتفظ فى خــزانته باوراق وصور جمعها منذ ايام عندما كدسها أبو الهادى « عمك سليمان » امام عتبة الباب والدمع يقطر من عينيه ويتدحرج على وجنتيه ٠ راى بعض الاطفال يتزاحمون على تلك الاوراق ويتشاجرون فنظر اليهم بحنان ثم اسر اليهم خشية ان يسمعه الجيران ٠٠٠ ان تسمعه الجدران :

ــ كلكم اولادى ٠٠٠ مات الهادى ولدى ولم يقترف ذنبا ولا اثما ٠٠ مات سيدكم الهادى يأبنائى فخذوا اوراقه وكتبه وكراريسه ٠٠٠ احتفظوا بها فهى هديته اليكم ٠٠٠ اليكم جميعا ٠٠٠ فقد كان يحبكم جميعا ٠ اما انا فعجوز جاهل لى رجل فى الدنيــا ورجل فى الآخــرة ٠٠ انتــم ورثــاء الهــادى ٠٠٠ مستقبله ٠٠٠ فيكم ٠٠٠

قال هذا ودخل منزله واقفل الباب خلفه ٠٠ وتفرق الاطفال ورجع هو الى دارهم ٠٠٠ الى غرفته المطلة على الشارع ٠٠٠ المظلمة ابدا اذ اوصد مصراعى نافذتها ٠٠٠ الى ٠٠٠ الى الابد ٠

استيقظ الطفــل مذعورا والاضطراب ينهشه نهشا ٠٠ فقد برحت الاحلام المزعجة بفكره وقلبه حتى كادت تخمد انفاسه المشانق والديكة والشياه ٠٠٠ والدم ٠٠٠ الدم من كل مكان ٠٠٠

لم يعد له من مفر سوى المقبرة ٠٠ نعم ٠٠٠ لقد اقر العــزم على الالتحــاق بالمقبرة فى حينه ٠٠٠ تابط قمره ــ اصل البلاء كله ــ وام شطر الباب الجبلى فى ذلك الصباح الباكر ٠٠٠ وصل الى المقبرة وقد بلله مطر غزير ٠٠٠ وما ان فرغ من الحفر حتى كان الصندوق فى قعــر الحفــرة فما كان منه الا ان واراه التراب والدمع ينهمر من عينيه ثم قرأ فاتحة الكتاب واستعــاذ من الشيطــان الرجيم سبع مرات وانصرف ٠٠٠

وقال فى نفسه وهو يصعد الدرج الى غرفته :

ـ أهكذا يفعل الناس بقمرى ؟٠٠ ما ذنب من يعشق القمر ؟٠٠ ما ذنب الهادى وما ذنبى ؟٠٠ وما ذنب القمر ؟٠٠

دفن القمر فى ذلك الصباح المطير لكنه احتفظ بالاوراق والصور وبكراس جميل كتب على غلافه بخط بارز انيق تحـوطه الازهـار فى الـوان مختلفـة بجذابة ٠٠٠ كتب على الغلاف كلمة « يوميات » ٠

وها هو الليلة بعد عشرين سنة خلت يفرغ من مطالعة ذلك الكراس الذى كادت تلتهم اوراقه الرطوبة ٠٠٠ فيعتريه على اثر تلك المطالعة نوع من الذهول والفتور والحيرة لا يستطيع بالضبط ان يدقق مبعثها وماتاها ٠٠٠ حاول ان ينام فلم يفلح ٠٠ واشعل سيقارة من سيقارة حتى افرغ علبته فاقر العزم على اعادة قراءة بعض الصفحات فى انتظار النـوم ٠٠٠ او الشمس اذا استعصى النــوم ٠

طفق يتصفح الكراس ويقف من حين لآخر عند سطر او فقرة من فصل اراد الكاتب ان يبرزها فافرد لها صفحة من كراسة : فقد جاء فى الصفحة العاشرة :

« اليوم الاثنين الثامن من مارس ٠٠٠ ما اطول ايام هذا الشهر وما اقصر الليل ٠٠٠ »

وفى الصفحة الربعة والعشرين يصف الكاتب جاره بابا مزيود :

« بابا هل من مزيد » انهرقام عدل وقور متزمت٠٠ صاحب دفاتر واوراق٠٠ له مكتب وجليس فى نهج العدول وزملاء وعادات وحرفاء وقطة سوداء تقيه من فئران الدكاكين وسجادة واربعون اصل من الزيتون فى « السواسى » وخادم اسود غليظ الاصابع عريض الكتفين قزم كسيده ٠٠٠ وله كالمشترى سبعة اقمار اقر العزم على ان لا يتخطين عتبـة البيت الا لزفة او دفـن فاما الـزفة فللأقرباء والموسرين من الاقرباء واما الدفن فبيد الله الذى يحى ويميت ولو كان الشيخ ربا لما تردد فى دفنهن لحظة واحدة ٠٠٠ اقماره انـاث وهو يكره الانــاث ٠

لو عاش الشيخ فى عصر الرقيق والاسواق لباع اقماره بالمزاد ٠

واحدة من اقمار الشيخ ··· واحدة ··· كالبدر فى حلكة الليل ··· اسمها قمر ··· وانى مع هذا القمر على موعد » ·

وفى صفحة اخرى من اليوميات :

« كلفنى الشيخ « هل من مزيد » بتعليم قمر بعض اصول الدين والعقيدة فى ايام العطلة الصيفية ·· اكون اول ذكر اجنبى يحظى بشرف الجلوس الى انثى من آل مزيود ؟ أبى الشيخ الا ان تكون مقابلاتنا فى وضح النهار فى وسط الصحن ··· مقابلات تشريفاتية رسمية فى كل مرة ···

رجع الشيخ من مكتبه اليوم حنقا مغتاضا فلم يحى ولم يقبل تحية ··· وكنت القن ابنته بعض قواعد الحساب فاشرف علينا وكنا جالسين فى الصحن وصاح متواعدا : « هذا عيب ··· هذا عيب يا ولدى ·· هذا لم يامر به الله ··· الحساب للرجال وللرجال لا غير ·· فالرجال قوامون على النساء ·· دعكما من الحساب واحفظها القرآن والسنة ··· وانت يا قمر ·· ارتدى قميصا اعفك الله واخلعى هذه الاثواب الضيقة القصيرة ··· انت ابنة الحسب والنسب ··· لا تنسى هذا قطعا ··· »

ويكتب الهادى معلقا على هامش ذلك الحادث معقبا :

« أهؤلاء هم القوامون على النساء ؟

رجل يربض بدكانه صباح مساء كالجمل البارك يجتر افكارا معادة وآيات محفوظة ··· رجل لا شغل له غير الشهادة العادلة ·· يدخل بيته فيضطجع فى انتظار الطعام ثم يأكل ويتجشأ من الشبع ويلتحق بفراشه لينام الى صباح غده ··· رجل يتجشأ ويغط فى نومه ··· رجل يأكل وينام ··· ويقضى ساعات الفراغ فى النظر الى الشارع ببصر شاخص ميت او الى قطرات المطر تساقط على الارض او الى اشعة الشمس وهى تحرق اوراقه ودفاتره يوما بعد يوم ·· رجل ينظر الى المارة ·· الى السكون ·· هكذا ·· طوال السنة ·· وينتظر ·· ينتظر الموت ·· أنى لهذا المخلوق ان يكون قواما ·· حتى على بنى جنسه من المجترين الرابضين » وفى اسفل الصفحة بخط بارز « اين الثرى من الثريا » ·

قرأ تلك الصفحات ووجد فى ذلك متعة كما هو يقرأها لاول مرة ... ثم نظر الى الغلاف وشخص بصره ساعة فى الصورة التى كان الصقها عليه منذ سنوات خلت .. كانت الصورة صورة له وهو فى سن العشرين وكانت كالنسخة لصورة كاتب تلك اليوميات . فابدل هذه بتلك وازال الضباب الذى كان يغشى صورة الهادى .

حملق فى الصورة طويلا ... نفس الوجه ونفس التقاطيع .. صورته وصورة كاتب اليوميات كالاصل والنسخة ... غريب ... غريب امر ذلك الكراس . هو ذا الليلة يكتشف جوانب من تلك اليوميات كان يكتنفها الصمت ... صمت الزمان ... صمت الموت ... هو ذا يجلس الى مكتبه وينهمك فى عمل جديد .

اخذ يكتب كتلميذ السنة الثالثة الذى كان ... فى خط يحاول ان يكون انيقا ... تحت عنوان اليوميات مباشرة ... فى نفس الحبر واشكال الحروف كلمة « كافر » وما كاد يفرغ من رسم تلك الحروف حتى انشرح وجهه وعلت شفتيه ابتسامة واضحة ... ثم نهض الى النافذة ففتحها على مصارعيها وغمر الهواء وجهه ونفذ الى صدره باردا منعشا سلاما ...

وطلع الصباح .

مصطفى الفارسي
عين دراهم 1967/9/3

القرد تحت الشجرة

بقلـم : عبد الله القويرى

قفز القرد من الشجرة ، ووقف على الارض لحظات ، وصرخ صرخة قصيرة تبعته بعدها القردة • جلسا متوحدين لفترة • كانت بقيـة القـردة متعلقـة بأغصان الاشجار • حاك القرد جنبه ، فنظرت اليه القردة ، وأسدلت يديها الى جانبيها • تلفت القرد كثيرا • السماء ملبدة بالغيوم • الاغصان تميلها الريح• خشخشة الاوراق مستمرة • مسرب ماء تتحدر فيه المياه على مهـل • هشيـم الاغصان يغطى الارض • رائحة الارض هى رائحة الاشجـار • بعض الطيـور تشقشق أحيانا ثم تسكت أحيانا أخرى ، وأكثرها لا يطير لمسافات بعيـدة • للحظات تسمع أصوات تخور أو تفور أو تثور ، ولكن القرد لم يهتم ، وكذلك قردته لم تهتم ، وبيدها أشارت الى صغـارها فتبعـوها الى الارض ، وبـدأوا يطوفون حولهما قافزين • هرش القرد جنبه كثيرا ، فمـدت القـردة يـدها تساعده فى هرشه للحظات ، لم تلبث بعدها أن مدت يدها الى مكان آخر • الجو مملوء بالرطوبة ولكنهما استحليا الجلـوس على الارض والاوراق تتسـاقط من حولهمـا •

* * *

المقهى تملأه رائحة الدخان • الانفاس راكدة ، الاصـوات مختلطة • شـم الجالس فى الركن الداخلى عرق الجالس الى جواره فتأفف لحظة ، تمـاسك فلم يظهر شعوره واستمر فى حديثـه • احس الجـالس الى جواره بمـا فى نفس صاحبه فقال :

ـ الجو مملوء بالرطوبة ٠

أجاب صاحبه :

ـ كنت أريد الذهاب الى البحر ، ولكنى عدلت ٠

ـ البحر ٠٠٠ انه سبب الرطوبة ٠

ـ قلت ربما كان هناك النسيم ٠

ضحك صاحبه دون داع ، وهز رأسه قائلا :

ـ ما أحلى النسيم ٠

كانت المروحة تدور فى سقف المقهى بعيدا عنهما ٠ تمنى أحدهما الجلوس تحتها عند الدخول ٠ ولكن شيئا فى نفسه دفعه الى الابتعاد ، وما إن ابتعد حتى تذكر خطورة الجلوس تحت التيار المتدفق من المروحة ٠ كانت فى نفسه أمنية ، هى أن يرى أحدا يعرفه ٠ ولكن ما ان قدم هذا الشخص الجالس الى جواره حتى تمنى نفسه وحيدا ٠ كاد يقفز حالما جلس صاحبه ، مدعيا بأن لديه ميعادا فى مكان آخر ، ولكنه استسخف ذلك فحتما سيعرف صاحبه ضميره ٠ سيهز رأسه بالايجاب قائلا : « تفضل » حتى اذا ما غادره ربما بصق فى اثره أو شتمه ، أو لعنه ، وسيمسكها له الى مرة اخرى، قد يردها بأعنف منها، وعندما يحتاج اليه فى أمر تخيل لحظتها عينيه تطيش منهما نظرات تحرق جانبا من قلبه ، ونظراته تترجى متلقية نظرات صاحبه كانهما جفنتان من بللور مجوفتان يخاف عليهما الكسر ٠ وسيقف أمامه كثيرا سيذهب اليه فى مكتبه مرات ومرات ، وربما ابتسم له مرة ، وربما قال حاجبه مرة عنه بأنه غير موجود ٠

التفت الى الجالس الى جواره مبتسما :

ـ ألم تقرأ جريدة اليوم ؟

ـ قليلا ما أقرأ الجرائد ٠

ـ الا تتابع الاخبار ؟

ـ وماذا يهمنى من أخبار ؟ !

ـ ألا تهمك أخبار العالم ؟

ـ وماذا فى أخبار العالم ٠٠ باخرة تتحطم ، طائرة تحترق ٠٠ نصف الهند جائع ٠ عراك على الحدود ٠٠ لا أذكر الآن أين ٠٠

ولم يتم حديثه ، أخذه سهوم التفت أثناءه الى الجالس الى جواره فوجده غارقا فى مثل سهومه، نقم علبه ألا يستمع اليه، ونقم على نفسه ألا يستمر فى الحديث٠

أتت اليهما هبة من ريح المروحة ، ونفذت الى انفه رائحة القهوة ، فاشتهاها ، ولكنه أمهل نفسه ، فما زال ريقه لم يتحلب رغبة اليها ، وما زال يميل الى ابقاء السيقارة فى جيبه ٠ أتم اليوم علبة من السقائر ولم تبق غيرها ، وفى نفسه تساؤل ، هل سيشترى غيرها ٠٠ ترى ما الذى دعاه الى استهلاك عشرين سيقارة والنهار لم ينته بعد ؟

التفت الجالس الى جواره اليه متسائلا :

ـ ألا تشرب قهوة ؟

ولم يجبه بكلمة ، واكتفى بهز رأسه علامة الايجاب ٠

قال صاحبه :

ـ شربت اليوم أكثر من خمس ٠

أجابه هو :

ـ لم أشرب أكثر من ثلاث ٠

ـ لا أعرف لماذا أكثرت اليوم منها ؟

ـ لا أعرف أنا لماذا أكثرت من السقائر ؟

ـ لا أشرب كثيرا من السقائر ٠

ـ استرحت ، كاد صدرى يهلك من الدخان ٠

ـ القهوة أرحم على كل حال ٠

ـ لا أحتمل الاكثار منها ٠

وسكت كل منهما ٠ لم يبادر أحدهما بالمناداة على خادم المقهى ٠ ونظرا فى اتجاه واحد ٠

على الطاولة المجاورة تجلس مجموعة من العجائز . يتحدثن كثيرا . أيـد معروقة تتحرك ، وشفـاه مطليـة ، بعضهـا متشقق ، والبعض الآخر تكاد تلامس السفلى منها حافة الذقن . نظارات . قبعات . تذهب واحدة منهن كثيرا الى دورة المياه . يسكتن لحظات ، ثم يتكلمن فى نفس واحد . وصلت الى أذنيهما كلمات من حديثهن .

التفت الى الجالس الى جواره :

ـ ما أكثر حديثهن ؟

ـ عجائز ...

ـ فيما يتحدثن ؟

ـ فى كل شىء .

ـ شىء لا يطاق .

ـ إنهن يطقنه .

ـ ومن يطيقهن ؟ !

ـ الدنيا ...

ـ حتى الدنيا لا تطيقهن .

ـ انها تدعهن يعشن .

ـ ما أرذلها من عيشة !

ـ ولكنهن يحببنها .

ـ بماذا يفكرن ؟

ـ بما نفكر فيه ...

ـ ربما فكرن فى الآخرة ؟

ـ اعتقد .. لا يفكرن الا فى الدنيا ...

ـ واحدة منهن تتحدث عن مشاكل ابنتها ، وحبيبها .

ـ سمعت واحدة تتحدث عن خسارتها فى « ورق النصيب » .

ـ أما زال لها نصيب ؟

لم يسألهما خادم المقهى عما يريدان · لقد اعتاد جلوسهما دون أن يبادر واحد منهما بطلب شيء · كان مشغولا بالآخرين · وفى الركن الآخر كان يمد فنجانا من القهوة لقادم جديد ، جلس متوحدا · لم يكن ينتظر أحدا · فالتقت نظراته بنظراتهما · اختلطت نظراتهم فى أول الامر ، ثم تشابكت ، وبعد ذلك احتدت ، واخيرا تركزت مع نظرات واحد منهما · ترى هل يعرفه ؟ متى عرفه ؟ فى الشارع ؟ فى مقهى آخر ؟ فى الديوان ؟ فى السنما ؟ فى مسرح ؟ قطعا لا يعرفه ، فلماذا تتركز نظراته فى عينيه · لعله يظن بأنه يعرفه ، أو ربما ظن بأنه يعرف امرأته أو ابنته ، أو أى فرد من أفراد عائلته ، وان عرف واحدا منهم ، فماذا يهمه ؟ ربما يريد أن يتأكد · لا لعله يريد أن يشك ، هناك من يبحثون عن الشك فلا يجدونه ، وهناك من يشكون دائما ، وهناك من يبحثون عن الايمان ··· خلق كثير ·· ولكن ما له ونظراته تتقد ، وعيناه قطعتان من جمر ، ووجهه أحمر من الدم · وحاجباه يقترنان · ترى هل معه خبر يبحث عمن يفجعه به ؟ وتململ مقتربا من صاحبه هامسا فى صوت يكاد لا يسمع :

ـ ألا تريد أن تشرب قهوة ؟

وهز صاحبه بالايجاب ، فرفع يده ينادى خادم المقهى · الضجيج يملأ أذنيه ، ورائحة جورب متعفن تنفذ الى خياشيمه · والهواء ساخن ، والمروحة تدور ، ود لو يترك صاحبه ليجلس تحتها رغم التحذير الذى فى أعماقه · التفت فرأى وجهه فى مرآة على الحائط المجاور ، لم يلتفت الى المرآة من قبل ، وسريعا ما نكس رأسه مبتعدا عن نظرات ذلك البعيد · بحث فى أعماقه عما يتحدث به ، فلم يجد شيئا · أين أفكاره · أين ما سمعه من الناس · أين ما سمعه من الراديو ؟ لا شيء ·· لا شيء · لم ير فى وجهه ما يدل على أنه سيسمع منه ، ولكن ماذا سيسمع منه ؟ ترى هل يحدثه عنها عندما التقى بها فى ثنية شارع ، وابتسم لها ، فابتسمت ، ووقف فوقفت ، وكلمها واتفقا وذهبا الى غرفته · لم تكن كثيرة الكلام · كان حديثها اسئلة ، واعجاب · هذه البدلة ما أجملها · من أين اشتريتها ؟ هذه الكرافات لونها فاقع ولكنها لا تليق على البدلة الغامقة ، أوه يالك من صاحب ذوق فاقع الله ما اجمل هذا الرف · عندى رف مثله ، ولكننى لا أضع فوقه شيئا ·

كانت كلماتها النحاسية تخرق أذنيه · لم ترفع اليه نظرات واضحة ، ولم تلتق بعينيه تماما كان السرير متسعا · وكان صدرها مبللا بالعرق ·

رفع يده محتدا مشيرا الى خادم المقهى رافعا صوته :

ـ ألا تأتى ؟

وسمع كلمة :

ـ حاضر ٠

وجاء خادم المقهى ، وطلبا قهوتين ٠

لحظات لم يرد أن يكلم أى منهما الآخر ٠ دخلت أثناءها المقهى امرأة معطرة ٠ فالتفت الى صاحبه مسرعا ٠

ـ حلوة ٠

قال صاحبه فى نشوة ٠

ـ حلوة جدا ٠

ولم تجلس المرأة ، وطلبت قهوة وهى واقفة ٠ لم تنظر الى أحد ٠ ولم تبحث بعينيها عن عينى أحد ٠ لم تسكت العجائز ، الا واحـدة سكتت لحظـة تأملت خلالها المرأة ثم عاودت الحديث ٠ لم يهتم خادم المقهى بها كثيرا ٠ لم تكن تحمل علامة الانتظار التى يحملها كل الجالسين ٠ نظرت فى سـاعة معصمهـا نظرة سريعا وأنزلت يدها الى جانبها ، ثم بدلت حقيبة يدها من يد الى يد ٠ وبدأت تحرك فنجان القهوة بعد ما وضعت فيه قطعتين من سكر ٠

التفت الى صاحبه متوفزا ، ناقرا باصبعه على الطاولة :

ـ هل أكلمها ؟

ـ انت حر ٠

ـ ألا تعجبك ؟

ـ تعجبنى ٠

ـ انها رائعة ٠

ـ غيرها كثيرات ٠

ـ ولكنها أحلى من كثيرات ٠

وسكت ومضة استدرك بعدها ٠

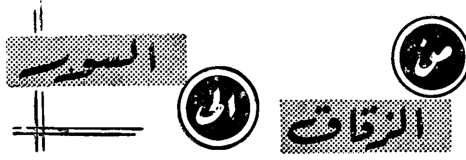
ـ نسيت أنك متزوج ٠

وتململ كثيرا على كرسيه ٠ وغرقت ليلة الامس فى لحظة تلك ٠ ولم يعد يهتم بنظرات الجالس بعيدا ٠ فقد تعلقت نظراته بالمرأة ٠ وفى هدوء أكملت المرأة فنجانها ، وأخرجت قطعة من النقود ٠ وضعتها على الطبق ، والتفتت على مهل تضع حقيبتها فى يدها الاخرى ، خارجة من المقهى ، متوجهة الى الشارع الواسع لتقطعه ، وتسير بعد ذلك تحت الاشجار المتعانقة ، التى تغطى الضفة الاخرى من الشارع ٠

* * *

صرخ القرد ، وقفز راجعا يتسلق الشجرة ٠ وتبعته القردة ، وتعلقت القرود الصغيرة بعدهما بالاغصان ٠ لم يحك القرد جنبه ٠ ولم تعد القردة يدها اليه ٠ كان القرد ينظر الى الارض فى فزع ٠ الطيور تشقشق دائما ٠ هشيم الاوراق والاغصان يغطى الارض ، ومن خلالها يتلوى ثعبان فى هدوء ٠ الاوراق ما زالت تتساقط ٠ هبات من الريح تهز الاغصان ٠ والطيـور ما زالت تشقشق ٠ لم يتسلق الثعبان شجرة ، فما زال يتلوى على الارض فى هدوء ٠

عبد الله القويرى



بقلم : عبد القادر بلحاج نصر

كان لا بد عليه ان يعـود ٠٠ وان يصعد الدرج ٠٠ ويتنفس ٠٠ وفى تلك اللحظات كان لا بد ايضا ان ينظر على واجهات كثيرة ٠ وحين وقف اخيرا امام الباب وضع يده على جبهته كأنه يمسح العرق ٠٠ ثم التفت من جـديـد الى الجنوب ، وكان بامكانه ان يفعل شيئا فى هذا الوقت ٠ كان قلقا لأنه لم يكن هناك ومن الصعب ان يكون فى ذلك المكان ٠٠ تدحرجت خطواته كأنه يخطو على الثلج ، وكأنه موثوق الى وتد كبير ٠٠ ولم يتساءل ؛ لأنه لو كان قد فعل ذلك لتحركت شفتاه ٠ وأطرق ، غير أنه كان ينظر ، وكأنه يلاحق الريح ٠٠ وكأنه يفتش عن شيء يصل به الى هدفه دون تفكير ودون اطراق ٠

وكان لا بد ان يتحرك ، وان يرفع قبضته كما فعل دائما٠٠ ويطرق الباب٠٠ ثم يترقب ٠٠ ويدخل ٠٠ ولكنه احس بان تغيرا فى حياته قد وقـع ٠ وكأنه احس بهذا فجأة ، فسقطت يده عن جبينه كأنها ورقة ثقيلة ومشى كأنه يقيس مسافة باقدامه ٠ وكأن هذه المسافة اطول من ان يقيسها رجل باقدامه ٠ ماذا يفعل ؟ هل يستطيع التفكير مرة اخرى ؟ احيانا يشعر بان جسمـه هو الذى يفعل كل شيء ، وان هذا الجسم يندفع بلا قيد ، وبلا حسـاب ٠٠ يا للخطى المرتبكة حين تنزلق على الاسفلت ٠٠٠ برميل يتحرك كأنه يشتغل ببطء ٠٠ هل يعود فيطرق الباب ؟ نظر الى الازقة ٠٠ كانت تمتـد فى ثـلاثة خطـوط مستقيمة ، وكأنما هندست ٠ ولكن فى الواقع لم يفكر احد فى ان يرسمها ، ولو فى خياله ٠ ورغم ان الابنية كانت قديمة ، وخاوية مرت عليها الحرب فقد كانت جد مستقيمة ٠ اعجبه هذا فوقف ٠

«٠٠٠آه لو كان الوقت ظلاما لاستطاع رؤية القطط، ولاستمع اليها وهي تموء بشدة ، للاحقها بنظرة وهي تطارد بعضها ٠٠ ربما يساعده ذلك على ان يفعل شيئا معينا ٠ ان يتخيل مثلا ان الحرب قد بدأت ، وان باستطاعته ان يقترف جريمة ، ان يقتل نفسه اذا شاء ٠ وان يكون كل هذا على حساب الحرب ٠ المهم ان يكون مقتنعا بان الحرب قد بدأت ولا يهمه اذا كان ذلك حقا او باطلا ٠٠٠ »

فى آخر الزقاق الاول كنت تستطيع مشاهدة البحر اكواما سوداء تتخبط والى جانبه تقف بناية قديمة عالية وكانها تلاصقه وعلى جوانبها تتفرق بناءات اخرى اقل اهمية ٠٠٠ ولكنها تستطيع تفسير وجودها بانها دائما مأوى جماعة من البحارة ٠ وانها صالحة فى ايام الشتاء ٠٠ وانها لم تكن مهجورة كما يتخيلها الناس ٠

اما الزقاق الثانى فينفتح ايضا على البحر ٠ ولكنه كان عديم الاهمية بالنسبة له ٠ وحين حول بصره اليه احس بقشعريرة تخيط جسده فتابع السير دون ان يشاهد الزقاق الثالث ٠

كان يستند بيده على الجدار ويمشى ٠ وحين بدأ يغيب وبدأت فضلات تفكيره تتراكم على بعضها كشرائح الجسد اللحيم حين يجلس صاحبه وحين بدا يحس بالعذاب اكثر من اى وقت مضى ٠ كانت امرأة تندفع فى الزقاق الثالث كانها عربة ثقيلة ٠٠ وتحاول الوصول الى مفترق الازقة الثلاثة حيث تقترب الابنية ٠٠٠ وتتكاثر ٠٠ وكانت ، وهى كالعربة الثقيلة تجعل كل شىء يتحرك من حولها ٠٠ حتى الزقاق ، والارض والجدران كانت تجتهد فى الوصول ٠ وكان قلبها بلا شك يدق ، وتتعالى دقاته ، التفتت هى ايضا ٠ وسمرت عينيها فى بناية المستوصف ، ثم البناية التى تليه ، وتخيلت رجلا يجثم على كرسيه ويتنهد ٠ تابعت السير ٠ لم يكن هناك شىء يربط بينها وبين الرجل المندفع فى الزقاق سوى هذا الاحتراق والحزن ، وهذه المسيرة عبر زقاقين مختلفين واقدام تتخبط بلا هدف رغم ان لكل واحد منهما غاية يعرفها ، رغم ان السبيل كان واضحا وكانه مضاء بشموع قوية ٠ ولكنه كان باردا ٠٠ مسموما ٠ فاذا كان هناك رابط يشدهما فهو قديم جدا ورقة زواج انتهى العمل بها منذ سنين ٠ الحظ كان تعيسا ٠ وكان مقلقا ، وكانه ليلة شتاء باردة ٠ وكأنه ندائف ثلج تلتصق بجسد مقرور ٠

كانت تعرف أن المنزل خيال، منزلها القديم. وتعرف ان الجدران ما تزال على حالها حتى الملاط لم يتغير ، والخيوط السوداء التى تبدأ من فوق الموقد ، وتتسلق الجدران ، ثم تبهت وتموت وبعض النبات الجاف فوق هذه الخيوط ، لان امرأة لم تكنسه ٠

حاولت ان تعد النوافذ التى ما زالت تفصلها عن المنزل ٠ ولكنها لم تفلح ، فقد كانت الصور تتراكم وتتبعثر ، دون ان تربطها فى خيالها سببية معقولة ٠ وحين وصلت وصعدت الدرج كما فعل الرجل منذ قليل ٠ قالت فى نفسها « لقد بدأت العاصفة ٠ ماذا أقول ؟٠٠ »

ترى لو التقيا ٠٠ لو تأخر الزمن قليلا بالرجل ، او تقدم بالمرأة ٠٠٠ لو صمتت الحركة قليلا فى حياة واحد منهما لالتقيا فجأة ٠٠٠ لو شق الرجل طريقه عبر الزقاق الثالث ٠٠ لحدث أمر ٠

طرقت الباب ، وترقبت فى صبر مفتعل ٠

« كيف لو خرج هو ٠٠ الرجل القديم بوجهه الصارخ ، بنظرته القاسية ٠ بحذائه المسطور ٠ ولكن هذا لن يكون ٠٠ لانه ذهب منذ الصباح ٠٠٠ ذهب ولن يعود ٠

تحرك الباب فى بطء ، بدأ ينفرج ٠ ولعبت خيوط الضوء الباهت فى بقاع ضيقة من الجدار الداخلى ٠ وكلما اتسعت فرجة الباب ، كلما اتسع الضوء ٠ وكثرت ذبذبة الاضواء ٠ لم تر المرأة شيئا ٠ كأن الباب كان يفتح وحده ٠٠ انتظرت ، ولكن أى شىء لم يحدث ٠ سمعت خطوات تبتعد ، راجعة من حيث أتت ، وتتابع رنين الخطوات ٠ احدث فى رأسها موسيقى فاترة بطيئة ، ولكنها مؤثرة ٠ وعندما عاد الصمت يملا المكان من جديد تقدمت فى سرعة لكيلا تخونها عزيمتها ٠٠ ومشت فى الممر الضيق ٠ ثم انعطفت ، ووضعت يدها على مقبض الباب ٠

كانت تعرف ان فى الغرفة شيئا غير معهود ٠ دفعت بيدها الباب ٠ ولاحظت ان الضوء ما يزال منسكبا على الجدران ٠ فأدركت انها تركت باب المدخل مفتوحا ٠ غير انها تابعت حركتها وان ذلك امحى من خيالها ٠٠ ظهر لها شق

السرير ·· ثم خزانة مفتوحة لم تكن تحتوى الا على أثاث مبعثر : اقمصة قديمة بعضها متسخ ، وروبات ملفوفة كانها وضعت لدمى · ثم اتسع المنظر ، واحتوى وجوها ثلاثة صغيرة جالسة بجانب بعضها ، كانت تنتظر الى الباب فى صمت وكانت احداقها فارغة ·· فارغة كالزجاج ·· لم تتحرك الوجوه ، لم يبد عليها انها تعانى لحظة حرجة · وان وجها عزيزا يطل من الباب فى ذهول ·

كانت الاشياء المحيطة تبدو متعبة ، ضاربة فى القديم بالية ·

كأن اللحظة الحبلى هذه انتزعت منها الاحساس ·· من الوجوه الثلاثة ، من الاثاث ، من الجدران · من الموقد ، من السقف ! حركت المرأة ساقها الى الامام ، ثم تسمرت · تحرك وجه صغير ، وجه طفلة صغيرة · نظرت الى اختها ، لم تلتفت اليها · أدارت وجهها الى الاخرى وجدتها يابسة فى مكانها كالحجرة · عادت الى وضعها · كانت لا تتجاوز السابعة ·· كانت كالدمية الكبيرة ·· وقفت الاخرى ، دون ان تتجه الى المرأة · ارتمت على السرير · دفنت وجهها بين راحتيها ، تجمعت الانظار حولها ، بدأ الصمت اكثر شمولا ، ارتفع صوت كان كالنشيج كالبكاء · ارتفع واصبح واضحا · لحقت الصغيرتان ·تقدمتا من السرير · اختلطت الاصوات · زحفت المرأة الام من مكانها بكت فبدت كأنها كتلة واحدة على السرير ·

آنذاك كان الرجل يتقدم · وكانت خطواته تثقل · بحار ما عرف الفتور والوهن· لم تتعثر قدماه ، لم تخنه ارادته ، وهو يصارع بقاربه الموج· لم يكن مهزوما · ولكنه عديم الحظ وكان يعتقد انه رجل نحس · دخل من السور فلاحظ ان رفاقه موجودون فى الداخل بفعل الموقد المشتعل · جلس بجانبهم ولم يتكلم · وتابعوا حديثهم كان شيئا لم يحدث ·

ـ ماذا نترقب ؟ البحر هادىء والريح خفيفة ·

ـ لا تكن متفائلا ، ستثور الريح وستقلب رأسك كالسطل القديم أيها البحار الهزيل ·

ـ ان هذا يحدث دائما وكان رأسى أقوى من ألف سطل ·

ـ انت بحار قوى • ولكنك حمار • ماذا يجدى ؟••

ـ وانت ثعلب ، ولكنك بحار هزيل ماذا يجدى ؟••

ـ لم نتنابز هكذا ايها القرد ؟

ـ ولم الصمت ؟ العاصفة علمتنا ان نتكلم كالطبول الفارغة •

ـ اذن هيا • وجرر ساقيك بسرعة • عاش البحر •

وقفوا •• ساروا •• ثم التفتوا اليه • قالوا له •

ـ لم بقيت باركا كالجمل • هل ستعد النجوم ؟

قال فى يأس :

ـ لن أبحر الليلة معكم •• دعونى أرقب النجوم •

ابتعدوا عنه • ابتعدوا كانهم ظلال تنعدم •• كانوا يسرعون الخطو نحو الشاطىء ارتدوا ملابس مختلفة • وكان يلوح على قسماتهم عبـوس كان اى شىء لا يربطهم الى بعضهم غير الطريق اذ كانوا صامتين • وكانت أحداقهم مليئة باهتمام مفاجىء • هناك قوارب مربوطة الى الارض سيشرعون بعد قليل فى حل رباطها ثم يدفعونها الى البحر ، كان شيئا لم يكن • وكان تلك الاجسام تدفعها طبيعتها الى العمل دون ان ينهكها العقل بفرضياته وشكوكه • لذلك كان كل شىء يقع بينهم بلا ضجيج وبلا محاسبة • وحين دفعوا بقواربهم الى البحر بدأوا يلوحون بأيديهم وجهة بعضهم وكانوا سعـداء • وفجـأة سقطت الايدى وبدت انظارهم مشدودة الى الشاطىء • حيث القارب الرابع لم يزحزح عن مكانه ••• وحيث رجل واقف كانه صنم يتطلع فى همود امامه • وحيث المياه تندفع الى الرمل وتعود خاسئة • وحيث بدأ الليل الاسود يغطى حوافى البحر • وكلما غاب هذا الرجل ، واصبح باهتا كالظل البعيد ، ويخيل اليهم انه كان يلوح بيده ، وان حركته كانت عنيفة منفعلة ويخيل اليهم أيضا انه من الصعب ان يعودوا الى الشاطىء فمضوا •

وقال الرجل لنفسه وهو عائد الى السور :

« أنا حمار ، حييت كالحمـار ويجب ان أمـوت كالحمـار • سـأعد رحلتى

بنفسى . ولن يمشى فى جنازتى احد . كلت يداى . فانا حـركة انتهت . سأذهب ..

كان كأنه يقيس المسافة بين السور والبحر . وكلما اقترب من السور . كلما أحس بأن نبضه يشتد ، وبان الحياة تغـادره . وبان الـدنيا غائمة اكثر من اى وقت مضى حتى ظن أن العاصفة ستثور ، وان المطر سيغطى الارض . ولم يكن هذا جد مخيف بالنسبة اليه . لقد قرر ، وانتهت الخرافة . قرر حين بعث لزوجته القديمة الضاربة فى القدم كانها حذاء مثقوب بالنسبة اليه بعث اليها بكلمات كهذه :

« تستطيعين العودة الى بيتك القـديم . انتهت مهمتى . بنـاتك الثـلاثة يترقبنك .. ولننس كل شىء » .

دخل السور .. لم يغلق الباب .. لم يهتم بذلك .

كانت الريح تنبعث منه الى الداخل فتكون دورات من التراب المتصاعد .. ثم تتفرق فى أمكنة متباعدة وتصبح كندائف الثلج .. وكان يشعر ان هذه الريح والظلام والسور ، والحجرة الخربة ، كموسيقى الكنائس التى تصحب الميت .. وهى بلا شك أصـدق كثيرا وأعمـق .. وكان فى مكان آخـر من القرية ، بيت آخر ، لم يهتم اصحابه بغلق بابه .. كان الممر عرضة لعصف الريـح .

قال الرجل فى نفسه :

« ... عندما يموت الانسان ماذا يحدث ؟.. هل تتغير الحياة بعده ؟ ماذا يقع على هذا الجدار مثلا ؟.. وهل تظل النجوم مضيئة كما هى ؟.. وهل تظل الريح تعزف ؟ كنت اظن دائما ان الظلام يعم الكون عندما يموت انسان .. ولكنى مقتنع الآن .. أن القارب لن ينقلب .. ولن يدس رأسه فى التراب .. والبحارة الثلاثة .. والبحارة الثلاثة أصدقائى ... »

صمت .. ظل يحدق فى اشياء لا يراها كأنما ينظر فى فكرة مكتوبة فى الفضاء ... حقا انه لم يودع بناته ... ولكن حين خرج من منزله لم يستطع

مغالبة حزنه ٠٠ بكى ولم يقل شيئا ٠٠ وكن ينظرن اليه فى صمت كالدمى ٠ وادرك انهن سيبكين ايضا ، لانه حيـن وقف فى البـاب والتفت اليهن رأى وجوههن مصفرة كالحة ، كاوراق التين عندما ينتصف الخريف ٠٠ اراد آنذاك ان يقول شيئا ٠٠٠ لكنه خرج دون ان يتكلم ، تذكر انه اغلق الباب ٠٠٠ وتذكر ايضا انه عاد بعد ذلك بساعات ٠٠ وحـاول ان يطـرقه مرة اخـرى ليـرى بناته ٠٠ ولكنه عجز وانصرف ٠٠٠ وكان صوت يهمس فى داخله :

« المشكل أنك أحسست بالتعب ، فاردت ان تقلب الكيس مـرة واحـدة وتنتهى » ٠

واجاب نفسه :

« كان هذا هو الواقع ٠٠ ما دام هذا الحل ٠٠٠ سأقلب الكيس مرة واحدة وسأبصق فى اشمئزاز على هذه الامكنة التى سال فوقها عرقى ٠٠ ومع هذا فلست جبانا ٠٠ ولست انانيا » ٠

جلس فى ركن من الغرفة الخربة ٠٠ بدا لاصقا بها كحجرة كبيرة ٠٠ أحنى رأسه بين ركبتيه ٠٠ وبدا طنين حوار قديم يرتع الى رأسه :

ـ انت رجل بحار ٠

ـ كان ان طلقت امرأتى ٠٠

ـ بلا سبب ؟

ـ كان السبب اننى بحار ٠

ـ اتكرهها ؟

ـ كانت لى مشاكل نفسية ٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ كنت حمارا ، واظل حمارا هكذا ٠

ـ لماذا ؟

ـ للسبب نفسه ٠

ـ لا افهمك ٠٠ تحدث ببساطة ٠

ـ اريد ان اقلب كل شيء ٠

ـ متـى ؟

ـ عندما يشعر الحمار بالحاجة الى ذلك ٠

ـ انت مجنون ٠

ـ انا فوضوى بلا سبب ٠ ولكننى اعانى من الداخل ٠

ـ وماذا ستفعل ؟

ـ سأقلب القارب ٠٠ ورأسى ٠٠ ومعدتى ٠

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ سائل من سيمشى فى الجنازة ، ايها الوقح ٠

* * *

تساءل ٠٠ لم قفز خيال ابنته المقبورة منذ اعوام الى مخيلته ٠٠؟ كان يحس انه قتلها ٠٠ وما زالت حتى الآن نظـراتها عـالقة بـذهنه ٠٠ تصفعه بألف سوط ٠٠ كانت تنادى امها ٠ وكانت امها بعيدة آنذاك ٠٠ كانت امها ورقة مهروشة لديه انتهى منها ٠٠ ربما لو كانت هناك لانقذتها من العذاب ٠٠ من يدرى ؟ ادخل يده الى جيبه ٠٠ اخرج قارورة ٠٠ ونظر اليها ٠٠ وبدأت تعتلى وجهه صفرة فظيعة ٠

* * *

عاد الثلاثة من البحر خواطرهم ممزقة بين عناء الماضى وما سيقبلون عليه ، ذلك التمزق المريح الذى يحسه الانسان وهو يقبل على فترة استراحة ٠ كانت الريح المندفعة من البحر تحرك ثيابهم ، فلا يهتمون بها ٠٠ كانوا واجمين ٠٠ كانوا يريدون أن يتحدثوا فى الوقت نفسه ٠٠ ولكنهم بـدوا كعـاجزين عن ذلك ٠٠ كانت القوة تلوح فى خطواتهم رغم تباطوئها ٠ فهم يمشون كما يتخيل الانسان الاها يمشى ٠٠ الارض ٠٠ والمسارب ٠٠ والاحجار ٠٠ كلها تحس

بوقع خطاهم ، وانفاسهم ، لانهم كانوا يعملون فى صمت ·· اجتازوا عتبة السور ·· توقفوا برهة ليتشاوروا ··· لم بقى الباب مفتوحا ؟·· رأوا الرجل متكورا · فقالوا : انه نائم لا نزعجه ·· دارت نعالهم ·· استقبلوا الفضاء الرحب مرة اخرى تفرقوا ·

« ··· لينم الرجل ·· لترقد الاحمرة ··· المتعبون والمتسكعون يعيشون فى صمت ··· ينامون فى صمت ···»

عندما ذهبوا كانت وجوههم حزينة كأن شيئا ثقيلا هبط فى كفة الميزان ولم يستطيعوا زحزحته رجع احدهم الى الشاطىء وهو يجرى · وقف الآخران يرقبانه ، مشيا نحو بعضهما · لم يتكلما الا قليلا لأمر ما رجع هذا البغل ·· ولأمر ما كان يجرى ··· انحنى على القارب ·· حمل نعله ·· واتجه نحو السور · وكانما ملأ نفسه شوق ليتحدث الى الرجل ·· ليسأله لم يرقد هكذا ؟·· هناك اشياء تفصل بينه وبين رفيقيه الواقفين : أكوام من تراب ، ومن أحجار ومن نتوءات ·· حين نظر اليها احس بانها تباعد بينه وبينهم ، وكاد يثور فى دخيلته ·· لولا ان دلف السور · ولولا ان تعثرت خطاه وهو يتجه الى الكومة النائمة لحدث تمزق فى نفسه · وقديما حاور رجلا لم يستسلم لمشيئة القدر ·· وقديما ايضا كان رجل ينتصب فى كل خطوة ويبصق ·· ويقول فى بساطة :

« ··· أنا خجل من أن أعيش » ·

كان الرجل ما يزال نائما · وهبطت اصابع مرتعشة ، متشككة لتحركه ، فانكمشت خاسئة · وانطلق البحار يجرى وما زال رفيقاه واقفين ·

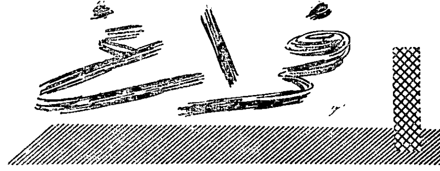
تحركوا كانهم يمشون الى الخلف ، وتحول بصرهم الى القوارب الاربعة · كان من بينهم قارب يبدو قديما · وكان البحر اكثر هدوءا · اما وجوههم فكانت ممتقعة · لصق الثلاثة بعضهم · وتحركوا بارتباك كبير نحو بناية السور من جديد ·

كان الفجر يزحف على البناءات العالية ، وينسكب فى هدوء كأن ثمة شيئا يجعله يتمهل · وكان باب المدخل حيث جلست المرأة وبناتها ما يزال مفتوحا ·

وكانت الوجوه صامتة تترقب شيئا ، وبدت كأنها فى حـاجة الى هذا الشىء اكثر من كل وقت ٠

هن يعرفن أن التراب قد تجمع تحت حوافى الباب ٠ وأنه سيتجمع كلمـا قصفت الريح القرية ، وقد بدأت تثور الآن متكاسلة ٠ وخيل اليهن أن اصواتا آتية ، وأن خطوات تقترب ٠ وخيم الصمت من جديد ٠ وكن يترقبن : أفواههن مطبقة ٠٠٠ عيونهن توحى بان شيئا قد حدث ٠٠٠ كن يترقبن ويترقبن ٠٠٠ وسيترقبن ٠٠٠

عبد القادر بلحاج نصر



بقلم : الطيب العنابى

ايتها الصديقة العزيزة ،

لقد مضت الآن عدة اشهر على تلك الامسية الجميلة الخالدة ، التى سعدت فيها بالتعرف عليك • فلقد القيت ـ أنا ـ قبلها سلسلة من المحاضرات الادبية والاجتماعية بنادى الزيتون • وكنت ـ انت ـ قد حضرتها ، واستمعت اليها كلها ، واستحسنتها ، فأتيت لبيتى بربوة قرطاجنة ، عن غير سابق وعد ، لتعبرى لى عن تقديرك لها واعجابك بها • وهناك اقتبلتك بالجناح الخاص بمكتبتى الذى اعتدت ـ منذ بضعة سنوات ـ الاجتماع فيه برجال الفكر والقلم •

وانى لواثق كل الوثوق من ان تلك الامسية الجميلة الخالدة لن تنسى • ولا يمكن ان تنسى • فانا لا انساها ، وانت ايضا لن تنسيها • لأن ما حدث فيها لى ولك ، وما نشأ عنها وتولد منها بينى وبينك لم يكن قط من هذه الامور العادية التافهة التى تمر بنا فى كل يوم فلا نهتم بها فى الغالب او نحن نهتز لها احيانا بعض الاهتزاز ثم لا نلبث ان نعرض عنها وننساها •

فلقد طال ، ليلتها ، الحديث بيننا وامتد وتسلسل ، ولقد تشكل باشكال مختلفة وتنوع وتفرع ، فما انهيناه في موضوع حتى انتقلنا به لآخر برغبة منى تارة وبرغبة منك اخرى • فكأننا كنا نتعاون معا ، فى تلك الجلسة ، على توفير الاسباب لامتداده ، ونحرص على ذلك الحرص كله • وكأننا كنا متفقين سلفا على ذلك ، لأن كلينا كان يجد فى تواصل ذلك الحديث واستمراره لذة لا

تعادلها اية لذة ، ومتعة لا تشابهها اية متعة • حتى انه كان من الممكن ان يخيل لمن عساه أن يستمع وقتئذ الينا ـ لو كان فى الامكان ان يستمع الينا فى تلك الامسية احد ـ اننا لم نكن نريد لحبل حديثنا فيها ان ينقطع ، ولا لجلستنا تلك بها أن تنتهى •

ولكننا كنا ـ كما تذكرين ـ فى تلك الامسيـة الجميلـة الخـالدة منفـردين بمكتبتى لا ثالث لنا ، نحستى القهوة الساخنة ، وندخن ، ونتحدث ، وكان مما زاد فى بهجة تلك الجلسة ، وعذوبة ذلك الحديث ، ورقة ذلك الانس الذى شعر به كل منا نحو الآخر ، أن بقينا كذلك منفردين الى النهاية ، فلم يكدر بها علينا صفو انفرادنا طارق ، ولم يقطع انسنا فيها علينا ضيف •

وانت اليوم تذكرين بلا ريب ـ كما اذكر ـ اننا تحدثنا ليلتئذ عن كل شىء يهمنا ـ انت وأنا ـ او من شأنه ان يهمنا من قريب او بعيد ، بل وتحدثنا عرضا واستطرادا عن اشياء اخرى كثيرة لا تهمنا بالمرة •

نعم تحدثنا عن محاضراتى بنادى الزيتون • وعن آرائك وآراء بعض الناس فيها • وتعاليقك وتعاليق بعض زملائك من المدرسين الشبان عليها •

وتحدثنا عما تجدينه ـ انت ـ من مشقة ومتعة ، فى نفس الوقت ، فى فجر حياتك التدريسية الجديدة مع تلاميذك الذين يدرسون عنك التاريخ والجغرافيا •

وتحدثنا عن التعليم وبرامجه ، وعن الجامعة ومستقبلها ، وعن الشباب وآماله ومطامحه ومشاكله •

وتحدثنا ايضا عن حركة التأليف والنشر بالعالم بصفة عامة وبالعالم الثالث وبتونس بالخصوص • وتعرضنا لما لاقيته ـ أنا ـ من صعاب لنشر كتبى الاربعة التى ظهرت لى فى الناس فى بحر هذه السنين الاخيرة • وانت تذكرين كيف راق لك منها بصفة خاصة الكتاب الاول الذى كنت قدمته للقراء منذ عشرين سنة ، وأنا يومئذ فى عنفوان شبابى ، فى سن تقارب سنك اليوم • فهو يضم الى جانب منتخبات من اشعار شبابى مقالات مختارة فى السياسة والاجتمـاع والنقد الادبى ، وتراجم مقتضبه لبعض رجالات تونس القدامى • فقد وجدت ـ انت ـ طريفا ان يكون الخط الجامع بين كل ما نشر بذلك الكتاب شعرا ونثرا

على اختلافه هو المؤلف ، أى أنا • وانت تذكرين ايضا بلا شك كيف ابطأت بعض الشىء ، وانا اخط على كل نسخة من نسخ تلك الكتب التى اهديتها لك ليلتئذ ، فقد كنت ، وانا انتقى عباراتى انتقاء محكما ، حريصا كل الحرص على تخليد ارق ما كان بعد يجيش بصدرى نحوك من العواطف الفياضة فى تلك الاسطر التى كانت اول ما كتبته لك •

وتحدثنا فى تلك الامسية ايضا وبشىء من التبسط والاطناب من جانبك بالخصوص عن عدة مشاريع ادبية وعلمية تريدين - انت - بعثها من جديد بعثا او خلقها وتكوينها من عدم خلقا وتكوينا ، يحدوك فى ذلك حب غزير فياض لبلدك الذى هو بلدى ، وحرص قوى ملح على العمل لرفع مستواه الحضارى وتعميم صيته والزيادة فى اشعاعه بالدنيا •

وكان كل منا فى تلك الامسية الجميلة الخالدة يتحدث باسلوبه وبطريقته : غزارة وحماس واندفاع وحرص وتفاؤل عند الواحد ، واقتصاد فى الالفاظ واعتدال وتوئدة وحب فى الاحاطة والشمول عند الآخر • طريقتان اثنتان لجيلين اثنين تجمع بينهما افكار وميول وعواطف شتى •

وكان ذلك الحديث الطويل بينى وبينك لا يخلو بدون شك من مجاملات مقصودة صدرت عن كل واحد منا نحو الآخر ، واخرى غير مقصودة صدرت من كلينا عفوا ودون سابقية تفكير او تدبير • ولكن مجاملاتنا لبعضنا بعضا فى تلك الامسية كانت كثيرة • وقد اوحى بها لكل منا حب غريب فى تسامح لا تعرفه روحه المرفرفة علينا ليلتئذ افقا لها تقف عنده •

ولكن الحديث كان مع ذلك دسما ومفيدا ، وكان منعشا ومغذيا ، ولم يكن يخلو فى كثير من الاحيان من النقاش الايجابى البناء ، ومن الجدل الموضوعى الصريح ، ومن البحث العميق ، والتأمل الدقيق ، والاحكام المتجردة النزيهة ، والمحاولة الصادقة لفهم الناس والاشياء على حقيقتها •

ومن هنا كان حديثنا الطويل فى تلك الامسية الجميلة حديثا جميلا وممتعا • جميلا حقا وممتعا حقا • بالنسبة لك فيما كنت احسب ، ولكن بالخصوص بالنسبة لى انا • فقد كنت فى حاجة شديدة منذ سنين طويلة لأن اتحدث مع امرأة حديثا كذلك الحديث •

ايتها العزيزة ،

لقد كان من الطبيعى ، وقد انس ليلتئذ كل منا بالآخر كل ذلك الانس ، وقد تكونت بيننا فى تلك الجلسة الاولى مودة ومحبة ، ان نتفاهم فى كل المواضيع التى بسطناها بسطا وطرقناها طرقا تفاهما يكاد يكون كامـلا . فلم يتخلـل احاديثنا فى تلك الامسية اى اصطدام او حتى اختلاف فى الآراء . رغم امتداد بساطها وتنوع مواضيعها . فكان حرارة شبابك ، والاندفاع الطبيعى لسنك كانت قد وجدت فى تجارب وخبرة كهولتى بعض ما ينقصها . وكاننى من جهتى قد وجدت فيك الدم الحار الفوار الذى يمكنه وحده ان ينبه ويحرك ويدفع ما عسى ان يكون لدى وفى سنى من بعض الفتور فقد غمرنا فى آخر حديثنا ـ انت وأنا ـ فى تلك الليلة شعور غريب ، لااقدر على وصفه بان كلا منـا فى حـاجة للآخر ، وان كلا منا يكمل الآخر ، وان احدا منا لا يستطيع ان يستغنى بمفرده عن صاحبه .

ولست ادرى عندما كنا ـ تلك الليلة ـ فى ذلك الركـن من المكتبة وانت جالسة على كرسيك مشرقة بشبابك وبافكـارك ، وانا جـالس على كـرسى قبالتك اصغى اليك او اتحـدث معـك ، كيف دفعت بنا حـرارة الحـديث الى الاقتراب من بعضنا الواحد نحو الآخر ، ولست ادرى بالضبط كيف تم هذا الاقتراب هل بسعى منى ؟ ام بسعى منك ؟ او بسعى منا جميعا ؟ فلم اشعر الا وقد التصق كرسيانا ببعضهما . ولم اتحرج انا من ذلك كما كان يقع وكما لا يزال يقع لى عادة فى مثل هذه الحال مع غيرك من الناس . ولم تجدى انت بدورك فى ذلك الاقتراب والالتصاق اى قلق او غضاضة . بل كانت يدك قد تمسك ـ ونحن نتحدث ـ بيدى مرارا وكانت اصابعك قد تمر على اصـابعى من حين لآخر مرا رقيقا لطيفا . ولم اتردد انا بعد ذلك فى ان افعـل معـك شبه ذلك .

ثم رافقتك فى آخر الحديث الى الطريق وقبل امتطـاء سيـارتك كان آخـر تعبير عن الانشراح الذى غمر كلينا فى تلك الليلة قبلة صغيرة بريئة خاطفة ودع بها كل منا الآخر وأنا على يقين من انها اتت عفوا واننا لم نفكر فيها او نتهيأ لها من قبل لا انت ولا أنا .

* * *

ومنذ تلك الليلة المباركة التى تعارفنا فيها وتحادثنا وتواددنا توالت ـ ايتها

العزيزة ـ زياراتك لى بمكتبتى ، وزياراتى لك بصالونك الخاص . فكنا نجتمع فى كل اسبوع مرة او مرتين واحيانا اكثر من ذلك . وانك لتفضلين على صالونك مكتبتى لان مواد العمل العلمى والادبى اوفر عندى كما تعلمين . ولكن الشىء الذى لا تعلمينه هو اننى انا ايضا كنت افضل مكتبتى على صالونك لاننى كنت اجتهد كل الاجتهاد فى كل مرة لابقى بها معك على انفراد تام فى جلساتنا تلك المحببة لنا فلم يزرنى وقتها لا طلبة ولا اصدقاء ولا صحفيون او كتاب بل حتى زوجتى فانها لم تقدم ولو مرة واحدة من جناح السكنى الى المكتبة عندما كنا نختلى بها ونعمل فيها معا .

وكنا هكذا نواليها جلسات نختلق لها الاسباب اختلاقا ونكون لها المواضيع تكوينا ، فكنا عندما نفترق نطالع الكتب العديدة ونلتهمها التهاما ثم نجتمع لنعلق ولنتناقش ولنتجادل ولنستنبط ولنبتكر . وما عرفت فترة فى حياتى طالعت فيها اكثر من هذه الفترة التى عشتها معك ولا كتبت فيها اكثر مما كتبت فى هذه الاشهر التى مضت منذ تعرفى عليك ولا خصبا فكريا اوفر من الخصب الذى عرفته فى هذه المدة التى قضيناها لحد الآن نتعاون فيها معا .

ولعلك مثلى قد وقع لك ما وقع لى . ولعلك بدورك تشعرين بما اشعر أنا به فهناك قوة غريبة تدفع بنا معا للعمل المشترك وتحدو بنا لمواصلة الاشتراك فى هذا العمل الى ما شاء الله .

والحق اننى اصبحت آنس وأحن للاجتماع بك وتطمئن نفسى لهذا الاجتماع وترتضيه اطمئنانا ورضى لا عهد لى بهما من قبل فى حياتى التى طالت بعد بعض الطول .

والحق اننى ادركت بانك تبادليننى اطمئنانا باطمئنان وارتياحا بارتياح . وانشراحا عند اللقاء بانشراح وكم رأيت ـ ما ازال أرى ـ كلما التقينا ورفعت نظرك نحوى اشعاعا فى عينيك وبريقا لا يتأتى لكل الناس فهمهما وتفسيرهما .

فنحن نتعاون لا محالة تعاونا ثقافيا مفيدا مثمرا . ولكننى اشعر ـ ولعلك تشعرين معى ـ بان الذى يدفعنا لهذا التعاون النشيط المستمر والذى يتزايد

فيه النشاط والاستمرار ويتفاقم ليس مجرد خدمة الأدب حبا فى الأدب ولكن شيئا آخر اصبح يربطنا ببعضنا ــ انت وانا ــ ربطا قويا محكما ٠

انه بلا ريب نفحة غريبة من نفحات هذه العلاقة التى كثيرا ما تـربط بين قلبين برباط عاطفى جامح والتى تسعى حبا ٠

انه حب يشعر به كل منا نحو الآخر وهو حب من نوع خاص ، لا نستطيع وصفه بانه حب ولا نسمح لاى كان بان يصفه بانه حب فاجـر ٠ فليس فيـه ــ كما تعلمين ــ اية ظاهرة من ظواهر الفجور ٠ ولكنه لا يصح ايضا ان يوصف بانه مجرد حب برىء كحب الاب لبنيه والاخ لاخته ٠

وهذا ما علمته انت وعلمته أنا وحييناه ونحياه باستمرار ولربما فهمناه منذ اليوم الاول فى تلك الامسية الجميلة الخـالدة التى طـال فيها الحـديث الاول بينى وبينك ٠

وهذا ما انتهينا ــ بعد شىء من التـردد وفتـرات من الاشـارة والتلـويح للموضوع الى مجاهرة بعضنا به بعضا والحديث عنه بوضوح وصراحة حتى انك وعدت بدرسه والكتابة فيه وتحليله كما تعهدت أنا من جهتى بان افعل مثل ذلك ٠

* * *

ولكن الشىء الذى لم استطع ان ابوح لك به رغم هذه الالفة الغريبة التى اصبحت تربطنى بك وتربطك بى منذ اشهر عديدة ورغم ما تولد عنها من ثقة متبادلة ومن صراحة منى معك ومنك معى هو الذى فضلت اليوم ان احدثك عنه كتابة فى هذه الرسالة ٠

فكأننى كلما حاولت ان اقدم فى جلساتنا العديـدة على محـادثتك فيه الا وشعرت بحياء يغمرنى من رأسى الى قدمى فينعقد لسانى وتجف العبارات فى فمى وتتبخر افكارى فى الفضاء ثم لا اجد رأيا ولا كلمة ولا لسانا ٠ فاعرض عن ذلك الشىء ٠ وانتقل معك لبحث غيره وعندئذ وعندئذ فقط يخصب الفكر من جديد وتسهل العبارة وينطلق اللسان ٠

وانت تذكرين بلا شك انك فى سهرة من سهراتنا الحبيبة الينا سألتنى عن

زوجتى سؤالا عابرا فاجبتك بعد تلكؤ بجواب غامض لم يقنعك بشىء وقتئذ ولكنه ارضانى فى تلك اللحظة لاننى تخلصت به من حديث محرج ٠

وانا الآن ساجيبك عن ذلك السؤال فى هذه الرسالة فلعل قلمى لا تصيبه فيها الآفة التى اصابت فى كل مرة لسانى كلما اردت التحدث لك عن ذلك الشىء المؤلم لى ولامثالى ــ وهم ويا للاسف كثيرون ايتها العزيزة ــ والذى استطيع ان اسميه « مأساة جيل » جيلى أنا ٠

هذا الشىء الذى نعرفه كلنا والذى نعيشه كلنا والذى نفكر فيه كلنا باستمرار ولا نستطيع ذكره هو حياتنا مع زوجاتنا ٠

فنحن ابناء ذلك الجيل الذى يفسح لجيلك اليوم المجال ، نحن كلنا اصحاب القلم ، وارباب الفكر ، والاساتذة الجامعيين ، والكتاب ، والصحفيين ، والمؤلفين ، والادباء ، والاطباء ، والمحامين ، والقضاة ، والموظفين ، والمعلمين ، كلنا متزوجون منذ عشر او عشرين او ثلاثين سنة اى ان كلا منا له زوجة وله ابناء وله بيت وله حياة داخلية ٠

ولكنك ايتها العزيزة لو تعرفت الى كل واحد منا بمفرده كما تعرفت انت على ، ولو اطلعت على حياة كل فرد منا عن كثب كما اطلعت انت على حياتى فى الاشهر الاخيرة لتبين لك ان السعادة الزوجية الحقيقية الكاملة مفقودة او تكاد تكون كذلك فى أسرتنا ٠

فقد كان تعليم المرأة بالنسبة لجيلنا نحن مفقودا او هو فى حكم المفقود ٠ ولم يكن لاحدنا وهو يقدم على الزواج حرية اختيار شريكة له فى الحياة تقاسمه آراءه وافكاره وتجانسه فى طباعه وميوله حتى يمكنه ان يحقق معها بالزواج هذا الالتحام الروحى الذى لا تتوفر السعادة الزوجية ولا تكتمل ولا تنمو الا به ٠ بل ان الظروف والمصادفات المحظة هى التى كانت فى الغالب تقرب الزوج من الزوجة وتجعله يسعى نحوها وهو يفترض مستقبله ويتكهن به مجرد افتراض وتكهن ٠

والحق ان الزواج كان ولا يزال فى احيان كثيرة لونا من الوان المغامرة لا يعرف فيها المقدم عليه سلفا حقيقة حظه فيه ربحا او خسارة ، ونجاحا او

خيبة · ولكن الزواج لم يكن فى اى وقت من الاوقات مغامرة حقيقية خطر صاحبها فيه من الخسارة اوفر · مثلما كان عليه بالنسبة لجيلنا نحن ·

فقد كان من المفروض فى الزواج الذى يتم فى الجيل الماضى ان يكون البون الفكرى فيه شاسعا بين الزوج والزوجة ومن ذلك تكونت بينهما ولديهما مركبات نفسانية صارت معها الحياة الزوجية فاقدة للمقومات الرئيسية للسعادة الحقيقية الكاملة ·

فانت ـ ايتها الحبيبة ـ لم تجتمعى بزوجتى ولو مرة واحدة فى هذه المكتبة التى هى عندى اثمن ما أفخر به واعتز · والتى طالما ارتفعت فيها بنا معا ـ اثناء جلساتنا المحببة الينا ـ احاديثنا المتبادلة بينى وبينك الى آفاق فكرية منيرة بعيدة لذيذة سامية · ولا عجب البتة فى عدم اجتماعك فيها بها · فهى لا تأتيها قط لأنها لاتهمها · بل استغفر الله انها تهتم بها وتتحدث فى بعض الاحايين عنها حديثا ملؤه السخرية والاستهزاء ، ولربما الضغينة والحقد ·

ان المكتبة هى العدوة رقم واحد لزوجتى · فهى فى نظرها تفتكنى منها افتكاكا قاسيا وتنتزعنى منها انتزاعا عنيفا وتحتكرنى لخاصة نفسها احتكارا كاملا · فلولا المكتبة لكنت اخصص أوقاتا اوفر مما اخصصه لحد الآن للاجتماع بها والتجول معها ومرافقتها فى غداوتها وروحاتها وسهراتها ولهوها مع قريباتها وصويحباتها · فكيف يتأتى لها وهى تنظر للمكتبة هذه النظرة وتفكر فيها هذا التفكير وتحكم عليها تبعا لذلك اشد حكم واقساه ان تنشرح للقدوم لها والجلوس فيها ؟ وكيف تستطيع ان ترى بعين الرضى والارتياح ضيوفى اليوميين بها فتجتمع وتتحدث معهم او تنصت اليهم فيها ما دامت ـ فى رضاها عن نفسها ـ تنظر لهم ولاحاديثهم بشىء لا تستطيع ان تخفيه من الاستخفاف والازدراء ؟

وزوجتى ايتها الصديقة العزيزة ، مع هذا ، امرأة طيبة وزوجة امينة · انها امرأة طيبة لما تبذله فى كل يوم من جهود للاهتمام بالبيت وللسهر على تنظيف الاثاث والثياب وحسن الطبخ ولما تحيط به الابناء من عناية وعطف ورعاية وحنان · وانها زوجة امينة لانها امرأة مخلصة فى اداء واجباتها الزوجية بقدر ما تستطيعه امرأة فى مكانها وفى مستواها من اخلاص ·

ونحن نجتمع يوميا حول المائدة لنأكل ، ونجتمع في كل ليلة بالفراش لننام الواحد جوار الآخر ، ونحن نتبادل الاحاديث والآراء احيانا ولكن احاديثنا تلك لا تتجاوز مواضيع محدودة متماثلة تتناول شؤون العائلة من مسكن واثـاث وطعام او ما يجد بين الفترة والفترة من افراح او اتراح لدى الاقارب والاحباب ثم نحن قد نلعب الورق او الشطرنج وقد نتفسح او نذهب للسينمـا ، وقـد يتاح لنا كل سنة او سنتين ان نترافق فى السفر للخارج ٠

ولكننا فى كل تلك المظاهر اليومية او الدورية لانواع نشاطنا المختلفة نحيا حياة تكاد تكون آلية بحته فلا نتبادل الافكار ولا نتناقش ولا نعلق بل اننا كلما حاولنا ان نفعل ذلك ادرك كل منا لحينه انه فى واد وصاحبه فى واد ، وانه لا يتأتى البتة لاحدنا ان يفهم لغة الآخر ٠

فانت ـ ايتها الصديقة العزيزة على ـ قد استمعت لمحاضراتى ٠ ولقد كان هذا الاستماع سببا للتعارف بينى وبينك ٠ ولكن زوجتى وشريكتى فى الحياة وأم ابنائى والمرأة التى أراها بكرة وأصيلا والتى كان فى امكانها ان تتحدث لى على الاقل اكثر من كل احد سواها عن تلك المحاضرات لا تزال تجهل لحد الآن انى القيت فى هذه السنة سلسلة منها بنادى الزيتون ٠ وانه كان لها صدى وتأثير ، وان كثـيرا من الصحف افسحت أعمدتهـا لنشرها والتعليق عليهـا ونقـدها ٠

اما كتبى التى اخرجتها للناس فلا ترى زوجتى بشأنها فى اقبالى على الدرس وانكبابى على البحث والمطالعة والكتابة ، وفيما اتحمله بعـد ذلك من مشـاق وتضحيات لنشرها الا ضربا من ضروب الشقاء الذى كتبه الله لى فى اللوح المحفوظ ٠ وهى تؤكد جادة باننى اضيع فى كل ذلك اوقاتى وشبابى وثروتى وافنى فى كل ذلك عمرى واضحي من اجل كل ذلك بهنائى وبسعادتى ٠

وتمر الايام وتمر بسـرعة فازداد أنـا اقبـالا بكليتى على كتبى ودفـاترى وأوراقى بقدر ما تزداد هى فرارا منها ونفرة وكراهية لها وبغضا ٠ ويـزداد بذلك البون الفكرى الذى كان يفصل بيننا من قبل اتساعا يوما بعد يوم ٠

وانتهينا ـ أنا وزوجتى ـ بعد اخذ ورد ومد وجزر الى تنظيم حياتين اثنتين لنا متجاورتين الواحدة الى جانب الاخرى ٠ فهى تنظم اقتبـالاتها بالصالـون

الحبيبة الى بشبان العلم وشيوخه وبكل هؤلاء الذين يتفضلون بزيارتى من فتجتمع فيه بكل اترابها من قريبات وصديقات • وأنا اقتبل بمكتبتى هذه رجالات القلم والفكر •

وهكذا يتضح لك ـ ايتها الصديقة العزيزة ـ اننا ، انا وزوجتى ، نحيا اليوم ونتعاشر ، وان مثلنا كمثل خطى سكة الحديد فهما يسيران باستمرار جنبا الى جنب ، ويتعاونان الى ما شاء الله على تحمل اعباء قطار الحياة • وهما متفاهمان فى ذلك ، متفقان عليه • ولكنهما لا يلتقيان ابدا •

وتلك الحال التى وصفت لك شيئا منها هى حالنا كلنا ـ ابناء الجيل الماضى ـ مع زوجاتنا على اختلاف لدى كل اسرة فى الجزئيات والتفاصيل • فنحن الازواج نحيا معهن حياة تكاد تكون مادية بحتة ولا نتقاسم واياهن لذة الحديث الادبى ولا نعمة التفكير ، وهن لا يشاركننا غالبا البتة فى كل ماله اتصال بعالم الروح والرأى والادب •

ولكن لا ينبغى ـ ايتها الحبيبة العزيزة ـ ان يذهب بك الظن ، وقد شرحت لك ما شرحت ، الى ان زوجاتنا هؤلاء بغيضات لنا او منبوذات منا فهن فى الغالب نساء وفيات أمينات طيبات صالحات وقد طالت بيننا وبينهن العشرة وتوطدت وتركزت الألفة وقرب بين قلوبنا التعاون اليومى المستمر فى البيت وحول الابناء وتعودنا نحن بهن وتعودن هن بنا • وعرف كل من صاحبه مكامن القوة ومواطن الضعف فنحن وان اجتمعنا فى اول الامر ببعضنا بعضا على غير سابق معرفة ولا ماضى حب فاننا مع مر الايام تحاببنا تحاببا وتألفنا تألفا ولكننا فقط لم نستطع ان نتفاهم البتة فى غير ما تتطلبه حياتنا اليومية البسيطة تلك ففرق بيننا ـ ان شئت ـ الرأى والتفكير تفريقا نفسانيا مريرا• ونال هذا التفريق من سعادتنا بهن ومن سعادتهن بنا اى منال لانه كون لنا فى حياتنا النفسانية معهن فراغا عظيما يعسر على اغلبنا سده •

ولعلنى بعد ان بينت لك فى شأن هذا الفراغ العظيم ما بينت ، ووضحت لك فيه ما وضحت بصراحة انت تعرفينها اليوم فى • وبصدق طالما اثنيت عليه وشكرته وأيدته ، أكون ـ فى هذه المرة أيضا ـ قد وفرت لك مادة الكتابة • فى موضوع عشناه ، نحن ابناء الجيل الماضى ، ولا نزال نعيشه ولكننا لا نستطيع ولن نستطيع الجهر به بالتحدث عنه او الكتابة فيه للناس •

فكونى من جديد ، كما كنت دائما عند حسن ظنى بك فى الاشهر الأخيرة ؛ وهبى على بركة الله وبعون وتوفيق منه لبحث موضوع هذا الفـراغ العظيـم وتحليله ، واشرحيه ، بما اودعه الله فيك من رقة فى العـواطف وحسن فى الادراك وسداد فى الرأى وعمق فى التفكير وسلامة فى التعبير ، ثم شرحـا كافيا شافيا لقرائك الجدد المتشوقين لمطالعة قلمك الحار الشاب ٠

وبينى لهم ما تضيق به صدور ابناء جيلى ولا تنطلق به السنتهم ولا اقلام ارباب القلم منهم ٠

ولتثقى ايتها الصديقة العزيزة ــ وقد ملأت انت بطيب قلبك ونبل عواطفك وسمو احساسك بعض ما اشعـر به انـا من هذا الفـراغ ــ باننى وفى لك ما بقيت ٠

عن ربوة قرطاجنة فى أوت 1967

فــــلان

زخارف للسلاح

بقلم : محمود التونسى

ـ أريد أن تقدم القضية كما سردت لك · والنظر للمحكمة ·

ـ لقد قلت لك : ان القانون صريح ·

ـ طيب ، القانون صريح والقضية مخسورة ، ولكن أريـد أن « أجـريه » وسوف أستأنف له النازلة وسوف أعقبها ·

ـ طيب · قل لى هل دفنت الكلب ؟

ـ نعـم ·

ـ هل لك شهود ؟

ـ نعم · ثلاثة · وتحدث بنفسه امام فلان وفلان ·

ـ حسنـا ·

خرج من مكتب المحامى يلعن الكلاب والمحكمة والعنب والقانون والسلاح ·

* * *

(المحكمة قضت بتخطية المدعى فقدمها للاستئناف) ·

* * *

ـ المحكمة رفضت الاستئناف ·

ـ اذن لم يبق اى حل ·

ـ بكل اسف . لقد قلت لك ممنوع منعا باتا ان تتجول الكلاب فى الطريق العام فى الصيف وفى شهر أوت خاصة .

ـ ولكن لقد قتله فى ترابى .

ـ انك تذكر ان محاميه قال امام المحكمة : ان الكلب كان يأتى الى مزرعة منوبه ، ويأكل له العنب . وادعى انه افسد له ما يقارب النصف هكتار من الهنشير .

ـ اذن لماذا لم يقتله فى هنشيره ؟

ـ لقد قال ايضا ـ فضلا على هذا ـ أنه كان يهاجمه عندما يكون فى طريقه الى هنشيره .

ـ الآن لا فائدة فى الحديث .

وخرج من مكتب المحامى يلعن الكلاب والقانون والمحكمة .

* * *

الكلب عندما يدخل مزرعة العنب ، بعدما يتسلل من الطابية ينظر يمنة ويسرة ، ولما يتحقق من انه ليس هناك احد يأخذ فى جولة بين الدوالى يمشى مسرعا ، ثم يبطىء بعض الشىء ، ثم يروغ الى اليسار ، ثم الى اليمين ، ثم يرجع الى الوراء . يسرع ، ويتوقف فجأة ليشم احدى الدوالى ، فلا يلبث ان يرفع رأسه ويجحظ الى البعيد رافعا اذنيه كأنه يتلصص . ثم يترك تلك الدالية ليذهب الى اخرى ... طبعا يبدأ بشمها وينظر اذا كانت عناقيدها كبيرة ، تهمه العناقيد الكبيرة . اما اذا كانت « مسكى او رزقى او بلدى او بزول الخادم او سوداء تماما » فهذا لا يهمه . واذا وجد العناقيد تتدلى او مطروحة على الارض يدخل رأسه بين الاغصان وقد لا يستطيع ، لان فروع الدوالى غالبا ما تكون كثيرة التشابك . اذا كان الامر هكذا يدور ليدخل رأسه من جهة اخرى . وقد يفلح وقد لا يفلح . وغالبا ما يفلح ، لانه يلجأ اخيرا الى نبش التراب تحت الاغصان الممتدة ينبش التراب بساقيه الاماميتين حتى يصل الى الحوض الصغير الذى حفر حول عنق الدالية .

بعد هذه العمليات يدخل رأسه ، ويفتح شدقيه ، ثم يضغط على العنقود

فيمتلىء فمه ماء حلوا أو حامضا بعض الشىء ، فينهض اذا كان جائما ثم يأخذ فى معالجة الحبات التى ما زالت صحيحة فى فمه ويضغط بعضها بلسانه وبعضها بأنيابه ويبتلع الاخرى صحيحة ٠

ثم يعيد العملية : يدخل رأسه وينظر الى العنقود الذى كان يلتهمه فيجد به حبات فى الاعلى واخرى فى الاسفل وبعضها يلمع من بقايا ريقه ٠ ينظر ايضا الى الحبات التى سقطت على الارض يشمها ثم ينظر مرة أخرى الى العنقود الذى كان يلتهمه ، فيلحس الحبات التى بقيت معلقة ثم يتركه الى العنقود الآخر ٠ ثم آخر ٠ وآخر ٠

وهكذا حتى يحس بالشبع ٠ ولكنه يتابع الى ان يشعر بحاجة الى القىء فينقيا ٠ وبعد ذلك يرفع رجله ويبول ٥ ثم يمضى فى سبيله ريانا شبعانا ٠

يقفز فوق الطابية ثم يمشى ببطء يترنح لا يلبث ان يحس بدوار فى رأسه فيتقيا ٠ وبعد ذلك يرفع رجله ويبول ٠ ثم يمضى فى سبيله ريانا شبعانا ٠ ريانا سكرانا يحيا حياته ويحلم ويغنى ٠

* * *

يا صاحب الضيعة :

جرب ان تكون مثلى كلب حراسة ، يأكل النخالة فى قبعة حديدية صدئة من مخلفات الحرب العالمية ، ويسرق العنب ، ويأكله مرشوشا بالبخارة والزنزار ٠ ثم يرقد فى الشمس ٠ سوف تحلم ان الكلاب تسرق لك العنب وجارك يملك ملايين الكلاب وانت كذلك ٠

كل هذه الكلاب للحراسة :

كلابك تسرق عنب جارك ٠

سوف تحلم كذلك أنك تقتل الكلاب ٠ كلاب جارك وكلابا اخرى وكل الكلاب وكل من تتوقع انه سيهاجمك فى الطريق ٠

جارك يقتل الكلاب أيضا ٠ وجاره وجاره ٠

٠٠٠ وسوف تحلم ان كل الكلاب قد ماتت ٠

... كذلك سوف تحلم باشياء اخرى :

اشكال العنف ، واشكال الحركة ، واشكال الراحة والامن .

وانت تضع يدك على بندقيتك :

بندقية ذات طلقتين .

وفى جيبك رخصة لحمل السلاح .

مكتوب عليها بندقية ذات طلقتين !

... للصيد والحراسة .

ومعها مقتطعات لشراء البارود ...

ومع هذا سوف تحلم انك خائف من الريح وتتكهن بالـزوابع ، وسيخيل اليك ان باب بيتك سوف يطير ، وسوف تحلم خائفا بابواب خشبية نحتت فى افريقيا السوداء ، نحتت فوقها اشكال أسلحة بدائية وحيوانات مفترسة . هكذا سوف تتعلم ان الابواب هى نوع من السلاح . وعندما يجىء الليل تخرج من بيتك ، وبندقيتك على عنقك ، تتنزه ، او تتجول ، او تتفقـد هنشيـرك ومزارعك . ترفع رأسك لتنظر الى القمر . تتمنى لو تتكسر الحدود لتتسع .

ولكنك تتذكر ان جارك له كلابه وبندقيته ، فتتابع سيـرك ومن حـولك الطبيعة هادئة .

ولكن نفسك تميل الى ربط عنقها بتقاطيع سوداء ترسمها الجوانب المظلمة من الاشياء .

وسوف تعود الى بيتك وانت تتساءل :

هل الكلب الذى قتلته هو الكلب الاخير ؟

ولكن فى الغد تكتشف انه ليس الاخير .

فتجدد رخصة حمل السلاح .

محمـود التـونسي



بقلم : عز الدين المدني

الحركة المجترة الأولى

جلستِ بجـــانبي تـلـك اللـَّيلـة

جلستِ بجـــانبه تلك اللـَّيلـة

لـن أجلس بجانبـك بعـد هـذه اللـَّيلـة فـي تـلـك اللـَّيلـة المـقـمـرة الـوضّـاءة ذات الضّيـاء البيضـاء فـي تـلـك اللـَّيلـة جلست بجـانبـه أو جلستِ بجـانبي فـي تـلـك اللـَّيلـة المقمـرة الـوضّـاءة ذات الضّيـاء البيضـاء حينمـاَ جلستِ بجانبـه أو بجـانبي أحسست كـأن الارض تـدور بي كـالـدوّامـة أحسستُ كـأنّي أدور كـالـدّوّامـة على الارض بعـد أن جلستِ بجـانبـه فـي تـلـك اللـَّيلـة المقمـرة الـوضّـاءة ذات الضّيـاء البيضـاء

لا أتـذكّـر شيئـــا .

لا أبـدا تتـذكّـريـن ذلك جيِّـدا فـي تـلـك اللـَّيلـة البيضـاء ذات الضّيـاء ربَّـمـا جلست بجـانبـه بـل لا بـدّ أنـك جلست بـجـانبـه أتـذكّـر ذلك جيـدا وربَّما جلست بجانبي كعـادتـك جلست مثلما كنت تجلسين أتـذكّـر ذلك جيِّـدا فـي تـلـك اللـَّيلـة ذات الضّيـاء المقـمـرة البيضـاء كالدّوامـة على الارض لعلـك كنت تـرقصين بي حتَّـى حسبت أنّي أدور كـالـدّوامـة على الارض على ألحـان الجـاز اللـَّولبيـة

لا أتذكّر من ذلك شيئا

ربّما لكن كنتِ بجانبه وأنت غير حافلة بشيء وهو يشرب كأسا كنت بجانبه في تلك الليلة المقمرة البيضاء ذات الضياء كي تؤنسي وحشة عمره ظلال عمره خيبة عمره أتذكّر ذلك جيدا في تلك اللّيلة كانت المصابيح بيضاء والفوانيس حمراء كلّها ترقص أمام عينيّ كالدّوامة على الارض على ألحان الجاز اللّولبية ليتك جلست بجانبه لتؤنسي وحشة عمره لتنيري ظلام عمره لتزوري خيبة عمره عمره الهالك الفاني وتذكرتُ في تلك اللّيلة أنك كنت معي في ليلة مقمرة بيضاء ماضية سابقة لا شك أنّك جلست بجانبه في تلك اللّيلة

لم أعد أتذكّر من ذلك شيئا

نعم ليتك كنتِ معه في تلك اللّيلة بل معي لتؤنسي وحشتي انفرادي عزلتي غيبوبتي ورقصتما وأنتما أمام عينيّ في عناق في همس في غمرة أتخيّل أنّ المصابيح كانت حمراء خافتة أنّ الفوانيس كانت بيضاء ذاوية وأنتما أمام ناظريّ في همس في عناق في نبس في اشتياق أتصوّر أنّ الكؤوس كانت بيضاء أن الاكواب كانت صفراء أنّ الالحان كانت دافئة هازجة والنّاس ... والنّاس ... والنّاس فأحسست كأنّ الارض تدور بي كالدّوامة بعدما لفنّي لحن لولبيّ شجيّ بل حزين حائر مضطرب ناشز أظنّ أنّكما كنتما كالطّين أتصوّر ذلك أظنّ أنكما كنتما في عناق في همهمة في قبل كالطّين في يدي الخزّاف في نبس في لمس في لمس في اشتياق كالعجين في يدي الخبّاز أتذكّر ذلك جيدا ثم لا شكّ انّي اقتربت منكِ عبر موجات الجاز وسألتك ثمّ من المتأكّد أنّي دنوت منكِ خلال الجموع وطلبتكِ ثمّ لابدّ أنّي

ألقيت إليك بعين عميقة وتوسلت إليك كالطين في يدي الخباز كالعجين في يدي الخزّاف لعلّي دنوت منك لنفرض اني دنوت منك محملق فيّ محملق فيك وتأخّر وتقهقر وتمنيتك بين ذراعيّ في عناق في همهمة في اشتياق في همس في قبل في نبس محملق فيّ محملق فيك أحلم بذلك في تلك الليلة الوضاءة البيضاء ذات الضياء كان صدى الالحان قد ضاع وضلّ وساح لمّا أخذتك بين ذراعيّ لتؤنسي وحشتي انفرادي عزلتي غيبوبتي أحلم بأنّه كان ينتظر

لن أتذكّر من ذلك شيئا

إنّك تتذكّرين تتذكّرين في تلك الليلة المقمرة البيضاء كنت واقفا وأنت أمامي تحدقين فيّ تحملقين فيّ بعد أن رقصتما رقصة جنونيّة على ألحان الجاز اللولبيّة كنت واقفا أنتظر صامتا أنتظر حزينا أنتظر والنّاس والجلبة والنّاس والجلبة والنّاس والجلبة وعيني عميقة واسعة تحدّق فيك وعينك عميقة حارّة تحملق فيّ وعينه سطحيّة ضيّقة تنظر فينا أتخيّل انّي كنت وايّاك في رقصة جنونية بينما كان واقفا ينتظر صامتا ينتظر حزينا ينتظر أظنّ أنّه لم يقترب منّا أبدا في تلك الليلة من ليالي الصّيف الجميل لكيلا تشفقي على ضلال عمره بهتان عمره تقهقر عمره هزيمة عمره عمره الهالك الفاني والنّاس والضّجيج والنّاس والضّجيج والنّاس والضّجيج يدورون كلّهم يدورون والكواكب تتألّق والكؤوس تشع والنساء تتأنّق وأنت تضحكين وعبير الفلّ والياسمين يرنو بينما أنا كنت واقفا أنتظر معجبا أنتظر فرحا أنتظر ورنّات ضحكاتك تزلزل كياني وهو محملق فيّ ببدلته السوداء وأنت لا تعجبين بشيء أظنّ أنّ خيالي قد تاه بي فلم عد أتذكر أمرا من تلك الليلة المقمرة ذات الضياء من ليالي الخريف النديّ سوى اني كنت وحيدا في تلك الليلة من ليالي

الشتاء الدافيء لكم تخيلت عوالم في رأسي لطالما تصورت دُنى في يقظتي لشدّ ما خلقت أكوانا في أحلامي لكن سأغني وسأشدو وسأفرح غدا واليوم وأمس لي ولك أيضا فقط فقط لا شكّ أنّ تذكاري قد ضلّ من المحتمل أنّ حافظتي نفدت لكن لا أستطيع أن أصدّق أنّك لم تأتي في تلك الليلة نعم جلست ولا حراك جلست ولا اهتمام جلست ولا انتباه ولا رقص ولا صوت ولا صدى ولا شيء سوى الوهم لكنّي أتذكّر مع ذلك في تلك الليلة أنّ كأسا قد سقطت من يديكِ أنّ ابتسامة علت شفتيكِ أنّ محبّة شعّت من عينيك

ألا تذكرين

كيف لي أن أتذكّر ذلك كلّه وقد مرت سنون وسنون ولم يرسب في حافظتي إلا خيال

نعم تتذكّرين تتذكّرين في تلك الليلة المقمرة ذات الضّياء من ليالي الرّبيع أو من ليالي الخريف أو من ليالي الصّيف أو من ليالي الشتاء الدّافيء الحنون رأيتك معه جالسة معه راقصة معه شاربة معه نائمة معه لكنّي لم أشاهدك قط تحلمين معه

كان بينكما شيء عميق سحيق كان بيني وبينك ألفة فشاهدتك معي جالسة معي راقصة معي شاربة معي شادية معي لكنني لم أشاهدك معي نائمة قط نعم شاهدته معك تلك الليلة وهو يمسح منظاره الاسود بمنديله الابيض كان ينظر إليك لكن كان بينكما ظلام غامق رهيب في عينيك في شفتيك في جسدك لكن كان بيني وبينك جسر من النور والعرق في عينيك في نحرك ينظر إلى صدرك في جسدك يمسح منظاره الاسود بمنديله الابيض والعرق

ليته في تلك الليلة المشرقة المقمرة ظلّ ينتظرك ليته كالدوّامة على الارض والارض الدوّامة والفوانيس البيضاء الشاحبة والمصابيح الحمراء الفاقعة القانية وهو يهزأ وانت تضحكين واقف أنا وهو يسخر وانت تضحكين جامد أنا وهو يعبث بجسدك بنحرك بصدرك وانت تضحكين مطرق أنا خِلتني كالدوّامة كالاغماء كاللولب كالبحر الفائض كجحافل السحب الشخماء يعيث بك وانت صامتة والناس والناس والناس والضجيج والقهقهات وسيول من الخمر تجتاح الحالوق والصدور وأنا أهزأ وأنت تضحكين وأنا أسخر وأنت تضحكين عابس هو وأنا أعبث بمحاسنك مطرق هو ليتك سهرت في تلك الليلة المشرقة معه كي تؤنسي وحشة عمره هلاك عمره هزيمة عمره عمره الفاني وسقطت كأس من يديك وتفتت ريحانة قطرة قطرة قطرة نظرة شعث من عينيك وتهشمت مرآة قطعة قطعة قطعة ابتسامة تألّقت على شفتيك لباسه الاسود في تلك الليلة السوداء حيث لا قمر ولا بياض ولا نور ولا ضوء ولا شيء إلاّ الوهمْ وتهشمت مرآة قطعة قطعة قطعة لباسه القديم في أسواق الملبوس القديم في تلك الليلة القديمة حيث لا حرّية ولا كرامة ولا غنى ولا شيء إلاّ الوهمْ في الاسواق القديمة قد تزيد وقد تنقص الثياب القديمة المفلسة كبدلة. أبيك أخيك فيك حميك أبوك ذو فقر مدقع وجوع عريق بدلة أبيك الامريكية الملبوسة التي تباع في الاسواق القديمة قد تزيد وقد تنقص وقد تلبس في الحفلات وتهشمت مرآة شظية شظيّة شظيّة في تلك الليلة المقمرة البيضاء الوضاءة ذات الضّياء حيث تذكرت نعم تذكرت وكنت معك وانتُ تتحدثين كيف اشتراك من ابيك أخيك فيك حميك من ذي فقر عريق أبوك وجوع في الامعاء باق قديم أخوك تذكّرت كيف باعك أبوك إليّ بقرصين من معدن قديم تذكّرت كيف دفعك إليّ أبوك وعليه لباس رثّ أمريكي قديم تذكّرت كيف طردك أبوك من بيته الحقير القديم فانطفأت

نظرة في عينيك وغاضت ابتسامة في شفتيك ونتأت عظام خدّيك جوى وبناء وسؤالا وبؤسا تتذكّرين صورتك الاولى في مرآة تهشمت شظيّة شظيّة شظيّة تتذكّرين كيف كان ينظر إلى أبيك عموديا ليته كان ينظر إليه أفقيا وإليك حيوانيا وحشيا وإلى أخيك احتقارا وإلى بيتكم ازدراء كيف كان يختلس إليّ النّظر أبوك واجما أخوك خانعا قانعا ومنكسرا تتذكّرين كيف كان أبوك قانعا ومنكسرا وفي يده قلب فيه خنجر وشم فيه قلب فيه خنجر فيه قطرة قطرة قطرة وهو يمتص بقية سيقارة حقيرة خطيرة وعرقه كالزفت يتصبّب على جسمه المعتل الاجوف الا تذكرين ماضيك الحافل بالمجاعة والعطش والبؤس والنّخاسة والدّناسة والخساسة.

لن أتذكّر من ذلك شيئا كيف لي أن أتذكّر ذلك وقد بعد العهد وذابت سنون ولم يبق في الحافظة الا خيال حائل في الذّاكرة الا صور باهتة في الفكر إلاّ النسيان والوهم لا بريق من النور بريق من الامل بريق من الرّجاء توق جامح طموح نهم بريق من الايمان انبثق من قلبي من نفسي نفسي تسبح في اهازيج الضياء في مواكب النّور انطوى الماضي إلى متى نعيش على الفائت السالف المنصرم الذكرى عجز وحنين

تتذكرين في تلك الليلة المقمرة الوضّاءة ذات الضّياء أنّي كنت حاضرا لاشك في ذلك كنت معك لا شك في ذلك في حجرة بيضاء في قاعة واسعة أقبية أقواس سواري وراءك ناس جالسون ناس واقفون ناس يمشون معهم نساء لا شك في ذلك وجلس بجانبك أو حينما جلست بجانبه او ربّما لم تجلسي وقفت عند نافذة تنظرين ولم يكن حر ولا قيظ ولا برد ولا صقيع إنما وقفت أمام النافذة وهو في طلبك في حياء ورأيت دمعة

تدحرجت خجلة انحدرت خجلة من عينك اليمنى خجلة لا شك في ذلك سعت من عينك اليمنى حين طردك أبوك طفرت من عينك اليمنى دمعة عزيزة انحدرت تزحلقت على وجنتك وتبعتها دمعة ودمعة وقطرة وقطرة لا شك في ذلك وكنت صامتة شاردة واجمة حيرى ولم تكن هناك أمك لكي تؤنسي وحشتك ضلال شبابك نذالة صباك في تلك الليلة السوداء حيث لا قمر ولا ضياء ولا شيء لاشك في ذلك وبعد أن خرجت إلى الحديقة في تلك الليلة المقمرة بعد أن خرجت من بيتكم الحقير القديم وطفت في شوارع المدينة الظلماء لا شك في ذلك نعم بعد أن خرجت إلى الحديقة تبعك تبعك لكي تأكلي معه ثمرة لكن كان يريد أن يتخلّص منك بكل حيلة أظن ذلك لكن كنت تريدين أن تتخلصي منه بكل حيلة لا شك في ذلك لانك مللت منه ومن حياته اليومية الرّتيبة لانه ملّ منك ومن بضاعتك الممجوجة لا شك في ذلك نعم تبع خطاك بحذر كأنّه كان يتجسّس عليك ودخلت الحديقة على حذر بعد أن تجسست عليه وتركته يكرع الكأس تلو الكأس ليخفي بسكره ضلال عمره بهتان عمره حماقة عمره عمره الهالك الفاني وتبعتك على حذر وقلت لك الا تذكرين حياتنا الماضية حين رقصت في حفل في ليلة مقمرة بيضاء ذات ضياء سابقة أتذكر الآن أنك لم تجيبي عن سؤالي

ماض ذهب ولن أتذكره وكيف يكون ذلك وقد بعد العهد وذابت سنون وسنون ولم تريدني ان أعيش دائما على الماضي الفائت المنقرض المنصرم بك حنين وعجز

ماض باق صامد في اعماقي باق راسب في أعماق أعماقي فبك عرفت بعض نفسي وبه عرفت بعض وعي نفسي لانه دم فيك

يسري لأنه في يسري قد لا تتذكرين ماضيك قد يكون ذلك
صحيحا وقد يكون حقا لكنه يحتمل الصدق والكذب هكذا
قال أصحاب البلاغة يا عزيزتي



الحركة المجترة الثانية

أما أنا فسأحدّثك عن الذّكرى

إذن

كيف لي أن أصدّق الذكرى وهي نسيج خيال وتصوّرات وبطلان وسراب ودخان

أتصدقينني إن حدّثتك عن الذّكرى وعنكِ وعنه

الذّكرى وما ادراك ما الذّكرى إنّها حياة وخلق وميعاد إنها لا تنسى ولا تمحى أبدا تبقى في حافظتك تبقى في صدرك تبقى في فكرك تبقى في الأشياء والأشخاص والعيون تبقى كالوشم لا يمحى كالنّقش لا يطمس كالاثر لا يدرس سأحدّثك عنك حديثا يخلو من البطلان والزّيف سأحدّثك عنك حديثا صادقا

في تلك الدّيار على السّفوح بين الغدران السّوداء في تلك الدّيار على السّفوح بين المستنقعات النتنة في تلك الدّيار على السّفوح بين الطّحلب والطّين والوحل في تلك الدّيار على السّفوح بين الحشرات بين الصلصال في تلك الدّيار السّوداء على السّفوح بين الحشرات في تلك الدّيار الشّقية على السفوح المنحنية في تلك الدّيار البائسة النتنة بين الغدران السّوداء في تلك الاكواخ على الحضيض بين المستنقعات في تلك الاكواخ القانعة القابعة بين طنين الذّبان الضّارى بين نقيق الضفادع الخائفة في تلك الاكواخ الشقيّة على الحضيض الخانع بين الطاعون في تلك الاكواخ المريضة على الهوّة السّحيقة حيث لا هواء ولا نور في تلك

الأكواخ الشّاحبة حيث لا باب ولا شبّاك في تلك الاكواخ الجائعة
حيث لا كأس ولا طاجين في تلك الاكواخ الجاهلة حيث لاقلم
ولاقرطاس في تلك الاكواخ المظلمة حيث لا بصيرة ولا بصر
ولا وعي ولا شعور حيث تتساقط الجدران حيث تنهار الأسقف حيث
تتحطّم الاركان في تلك الاكواخ الباهتة على السّفوح الباهتة
بين الاشياء الباهتة في تلك الاكواخ الملصقة على السّفوح الملصّقه
حيث الجدران الملصقة بقايا ركام بقايا عظام بقايا حطام في
تلك الاكواخ الباردة حيث لا نار في تلك الاكواخ الحارة حيث
لاهواء مكيف والاكواخ على الاكواخ فوق الاكواخ تحت الاكواخ
بين الاكواخ في الاكواخ حول الاكواخ تتصارع تتلاصق تتقاتل
تتجامع تتحاضن تتلاءم حيث الفراغ والامتلاء حيث الصراخ والصمت
حيث انحناء الظهر حيث الجباه الى الارض حيث المذلّة والمهانة
حيث اللقمة اللاموجودة حيث الجرعة المفقودة حيث الملل والكلل
والضجر والقلق حيث المسكنة هابطة من السّماء حيث الزغردة الخافته
حيث الضحك الهامس حيث الكلام النابس حيث الناس ظلال حيث
الظلال اشباح حيث الاشباح لا شيء في تلك الاكواخ بعد هجعة الليل
الجاثم على النّفوس صياح أنين خافت خائف خافت خافت خائف
في تلك الاكواخ عند الفجر حين يؤتى بالحليب ولا يذاق
ولا يباع في تلك الاكواخ عند الظهر حين يؤتى بأكل الكلاب
في صناديق القزدير يباع لقمة لقمة لقمة على كل كوخ
على كل ركن على كل زاوية حين يؤتى بالماء العكر في
الجرار النتنة يباع جرعة جرعة جرعة على كل كوخ
على كل ركن على كل زاوية حين يؤتى بالحلوى ولا تباع
حين يؤتى بالمرطبات ولا تباع حين يؤتى بالخبز اللّذيذ الابيض
ولا يباع حين يؤتى بالماء المشعشع ولا يباع في تلك الاكواخ
عند الشروق حين يؤتى بالسّكر ويباع حين يؤتى بالشّاي ويباع

حين يؤتى بالثياب الامريكية الرثة وتباع تباع بالأجسام تباع بليالي حمراء باهته تباع حين يؤتى بالاحذية ببقايا الاحذية بقايا أحذية الجنود بقايا احذية جنود اللفيف و لا تباع حين يؤتى باللبان يباع بقبلة حيث يبقى أثر الصلصال على الشفاه

في تلك الاكواخ عند الغروب حين يؤتى من جديد بطعام الكلاب في صناديق الصّديد لا يباع بنظرة عين لا يباع حين يؤتى بالسكر الدقيق الاصفر يباع حين يؤتى بالشّاي الاحمر والاخضر والاسود ويباع حين يؤتى بالخمر ويباع بليلة حمراء على سرير منهوك ويباع بقصص عنتر ويباع بقصص السّيف ويباع ويباع بقصص الجازية ويباع ويباع بقصص رأس الغول يباع ويباع بقصص علي يباع بألف ليلة وليلة حمراء على سرير متعب ويباع بقصص الجن والشياطين والمعجزات الخوارق والانبياء والعرافين والسحرة يباع بقصص البغايا وأصحاب البغايا ويباع ويباع بالنساء العوانس ويباع بالنساء العجائز ويباع بكل شيء ويباع حتّى بجسمك ويباع

أنا لست من أهل الاكواخ أنا لست من باللتي عاشت في الاكواخ محال أمر محال لم أعرفها تلك الاكواخ بريق من الامل بريق من الرجاء بريق من النور بريق من الايمان مصيري ضياء ضياء ستتحطم تلك الاكواخ وعليها سنبني بيوتا نورانية

* * *

قبر في حانة

بقلم : الطـاهر عمـران

كتل بشرية تزدحم زاحفة فى الشوارع تحسبهم جميعا وقلـوبهم شتى ، عيونهم تحملق ، تتبادل نظرات السخرية والمجون · المقاهى غصت بروادها ، فاضت بهم فانتشروا بين جوانبها · الحر شديد والحلوق جافة · وبين الحين والحين تهمهم الشفاه بجمل مقتضبة · هل ستيوقف اطلاق النـار ؟ فلسطين المنكوبة نكبت مرة اخرى ! لا ·· سيتغير الموقف فجأة ·

صاحب المقهى يفتح المذياع وقد تموجت بعض النسيمـات · انسـاب فى الفضاء صوت أم كلثوم ، « فات الميعاد » صاح الجالسون : هات « السلتيا » يا ڤرسون · واحدة « كوديا » « الكيميا » يا خويا ·

مرة اخرى تتردد الجمل المقتضبة بين الشفاه : لن يتوقف القتال سنقضى على كمشة الذباب برشة فيلتوكس واحدة · النصر للعرب ·

واختلطت نشوة النغم بنشوة السكر فى رؤوس السكارى ·

قال احدهم لرفاقه :

ــ العرب لن يغلبوا فى هذه المرة · صفوفهم موحدة ·

أجاب احدهم :

ــ وهل انت فى شك : صب صب · ايه يا كوكب الشـرق · لاقبلك ولا بعدك · مسبتحيل لن يتغلب العرب · استغفر الله مستجيل لن يتغلب اليهود·

كان ڤويدر مندسا بين هذه الجموع المرصوصة منطويا على نفس محترقة ٠ « ٠٠٠ سافزع الى الفضاء الرحب فى اطراف المدينة » ٠

هكذا همهم الى نفسه ٠

وغمره الاتساع فتلفت الى المدينة وحرك شفتيه :

ـ كومة قذرة من النفاق الاصفر تدب فى احشائها جميع الحشرات ٠

حدق فى الفضاء : شبح يتمايل ، يقترب ٠ جندى اعرج يتعثر ٠

دنا منه :

ـ عجبا يا رفيق الرشاش ٠ حافى القدمين تسير ٠ أغرتك الرمال الباردة بنسمات الاصيل ٠

حملق الاعرج مبتسما :

ـ اقدامى لا تخشى لسعة الاحتراق ، الشعلة مردومة منذ تسع عشرة سنة ٠

ـ لانك أعرج وغبى ٠

قالها ڤويدر هامسا ، وهم بالانصراف ٠ لكن الجندى استوقفه سائلا :

ـ مالك تغمغم ؟ جبن لسانك ٠ الا يهمك امرى ؟ تمهل ٠ انا جندى هارب من كتيبة ٠٠٠ امقت خطوات الصفوف وازدرى السير مع الجماعة ، انظر الى رشاشى الاسود ! انه فارغ كالافعى الميتة ٠ اغرب ، والا لطمت وجهك البليد بأفعاى العفنة ٠

عاد ڤويدر الى المدينة وقد صبغت دماء الشفق زرقة السماء ، وأخذ يطوف فى شوارعها ذاهل الفكر مهموما :

« ٠٠٠ يا للغرابة ! عهدى بالكنائس قد تكسرت صوامعها ٠ ها هى نواقيسها تدق بعنف وتتأرجح كالرؤوس الشامتة ٠٠٠ »

سلك زقاقا طويلا ضيقا تنبعث منه العفونة والشتائم وصراخ المذياع وفى

نهاية الزقاق ربض جامع عتيق برزت صخوره كضلوع الأسد • كان الجـامع مفتوحا مقوسا يلتهم افواجا من الشيوخ والعجائز قـد لصقت اسمالهـم على جلودهم الوسخة ، ضربات عكاكيزهم تلتطم بعتبة الباب •

« •• اللهم ارزقنا فانت خير الرازقين » •

بهذا الدعاء كانت السنتهم تلهج وهم يتأهبون للدخول •

رفع ڤويدر رأسه ورفع صوته :

ــ يا صاعد الصومعة • يا مهرج الحى • انزل يا غبى •

نزل المؤذن واسند ظهره الى جدار الصومعة ، تفرس ڤويدر فى جبهة المؤذن الناتئة وانفه الافطس وانحدر بصره الى الرجلين فصاح :

ــ او لست الجندى الاعرج صاحب الرشاش الفارغ ؟ تصيبك اللعنة !•• تمقت خطوات الصفوف ، وتؤذن للصلاة ، وتطلب منى ان اتطهر ونقف معـا صفا واحدا امام الله •

فقرب المؤذن فمه من وجه ڤويدر وصاح :

ــ و ••• ن ••• هل اطربتك ونونتى ؟ انها تشبه آذانى الـزائف كلنـا صراريرر يا •• لم تذكر لى اسمك ونسبك •

ــ انا ڤويدر ، جارك القديم ، من مواليد 1947 • جدار واحد يفصل منـزلى عن منزلك لكن فرصة التعارف لم تتح لنا •

ــ كلنا صرارير ، يا جارى القديم ، نهوى الغناء والخيال والسرعة الفارغة ، أنا بصيحاتى الجوفاء أسرق الخبز من جيوب المصلين ، وانهب الرصـاص من جعاب البنادق • ومثلى أنت • لقمتك منهوبة تخطف الدودة من مناقير الفراخ والبسمة من شفاه الاطفال •

ــ ألم تقل لى ــ وانت تحمل رشاشك الفارغ ــ انك قصة موبوءة • فهلا قصصتها على •

ـ لكن كلماتها خزى ولعنة ، يا ڤويدر ٠

ـ قصها ، يا أفطس ٠ انك اذ كتمتها تزيد فى خزيها ٠

تلفت الأعرج يمينا وشمالا وأطرافه ترتجف وبدأ يقص :

« ٠٠٠ كانت ممدودة على فراشها كالطفل النحيل ٠ أصابعها اليسرى مفروشة على وجهها الاصفر ٠ كفها اليمنى ، كالرضيع المريض ، راقدة على صدرها المهزول تعد النبضات الاخيرة ٠ انفاسها الباقية تتزحلق الى حلقها ٠ لمحت فى خنصرها خاتما من ذهب فانتزعته برفق وقهقهة مكتومة تغص بها أشداقى ٠ همست فى اذن أمى : ساشترى بثمنها الدواء ٠ فحدجتنى وادمعت ولم تنبس ٠ خرجت مهرولا فاصطدمت بأخى الاكبر ؟ سألنى : الا تزال تحشرج ؟ ولما دخل انزويت وراء الباب ٠ هوى أخى على الصدر المهزول وانتزع من الجيد النحيل قلادة الذهب وفر هاربا ٠ قبل أن أبرح زاويتى السوداء دخل أخى الصغير يغمغم : الا تزالين تحشرجين ؟ ! ٠ ورفع بين يديه ذراعا متخاذلة واستل منها سوارا له بريق جميل ٠ ثم انطلق كالقط المفجوع ٠ نهبت الطريق جريا ووقفت امام دكان الصائغ ألهث كالكلب ٠٠٠ »

سكت المؤذن ، وقذفه ڤويدر بنظرة حادة وقال :

أطللت برأسى ٠٠٠ كانت أمى فى لحظاتها الاخيرة ٠٠٠

ـ هل وقفت مثلى مرة تلهث كالكلب ، وفى يدك شىء نفيس مسروق ؟

صرخ ڤويدر :

ـ اقصص قصتك يا كلب ! ام انك ما زلت تلهث ٠

أطرق الأعرج وواصل قصته :

« ٠٠٠ داعب المرابى خاتم الذهب بين اصابعه فبهرنى بريقه ، ثم لطمنى بنظرة مرعبة وقال :

ـ ما أبشع مسروقك هذه المرة بكم ، يا عفريت ؟

ـ لا ٠ انه خاتم أمى سللته من اصبعها وحشرجة الموت تسرق حياتها ٠

ـ ماذا تقول ، يا ملعون ؟ ثمانمائة مليم ثمن خاتمك والا فسأدير رقم مركز الشرطة • ولعلك تلتقى فى منتصف الطريق بتابوت أمك وهى محمولة الى المقبرة • وأنت محمول الى السجن •

(ردد الصدى جملة المرابى : وأنت محمول الى السجن) فذهلت وسمعت أصواتا اخرى خافتة (وأنت يا سارق القلادة ويا سارق السوار اين المصير ؟ ••) افقت من ذهولى مذعورا وصحت : هات يا خلفون هات • وما ان تدحرجت القطع المعدنية الى جيبى المفتوح كفم الجائع حتى هجس الادمان فى اذنى • من هنا الحانة حانة « تويتو » ••• أن بداخلى صوت كآهة المريض (الى الصيدلية دواء أمك) ••• لكن هاجس الادمان عاودنى بعنف ، ها هى الحانة ، ادخل ، ضع مرفقك على المنضدة المستطيلة ، حدق فى الوجوه الضاحكة ، امرح مثلهم • انظر الى تلك القوارير الملونة المرصوفة كانها الغوانى على منصة الرقص ••• هات الكاس الاولى•••

وترشفتها قبلة حمراء مذابة بين أربع شفاه ••• هات الثانية ، هات الثالثة ••• هات يا « تويتو » •

انسحب يدى عن المنضدة واندست فى جيبى تداعب النقود •ورفعت رأسى المخمور ، ويدى تدفع الثمن ؛ فتراءت لى فى بياض السقف بقعة صفراء ، قشرة جير منتزعة ، تحولت قدماى فوق السقف ثم تحول السقف تحت قدمى • تضخمت البقعة الصفراء فصحت مشدوها ••• يا ••• قبر أمى • أنا فى الـ••• حانة أم فى الـ••• مقبرة ـ سحقا للصهاينة كيف يسلبوننا• المال ، وثنهم المقدس ••• أنا عربى ••• أعبد الجمال • المجد للعرب » •

ضحك ڤويدر ، وقال لمحدثه :

ـ كان الصهاينة قطعة خبز تسحقها بين اسنانك • وقبر أمك ؟ ماذا تبين لك منه ؟

ـ لم أتبين شيئا ، يا ڤويدر ، ولكنى خرجت من الحالة أجر قدمى • ولما وصلت وجدت الدار موصدة وعلى بابها لصقت ورقة كتب عليها :

« ... اذا لم يسدد الورثة ديون الهالك فستباع الدار الى صاحب الدين « بعيبق » ... »

بلع المؤذن ريقه وقال :

ـ لقد ازعجتك بقصتى دعنى الآن . لقد تركت المصلين ينتظرون .

دخل المؤذن المسجد فوجد المصلين يبتهلون الى الله عقب الصلاة « اللهم وحد صفوف العرب ، وانصرهم على الصهاينة نصرا مبينا » . فتردد « آمين » بين جوانب الجامع ملتوية فارغة كقرقرة البطون الجائعة !

الطاهر عمران

محمد المسيرقي

عـرض وتعليـق :

عـز الـديـن المـدنـى

لا شك ان محمد المشيرقى هو أول من نقل القصص الغربى الى اللغة العربية فى تونس • وأول من ترجم فقرات قصصية من إنتاج ليون طلستوى الاديب الروسى الشهير ، إذ اننا لم نعثر الى حـد الآن على مصـادر تخـالف هـذا الرأى وتفنده •

ولقد كان هذا « المتـرجم بالحكومة التونسية » (1) الاديب والشـاعر كان مطلعا على أدب الغرب وقصصه فى عصره ، متتبعا عن كثب لخطاه• وهو مترجم نابه ذكر • لم يقدم إلا على ترجمة ما يلائم الحقائق والواقع التونسى فى ذلك الوقت • والذى حدا به الى ترجمة « سلطان الضلال » وبعض الفقر القصصية من إنتاج تولستوى هو « ما شاهده بين أسطرها انتقاد عوائد روسية كثيرا ما ينطبق على عوائدنا التونسية » وذلك « خدمة للتونسيين خصوصا وللأمة العربية عموما » (2) كما ان الذى دفعه الى نقل « آخر بنى سراج » لشاطوبريان هو « الفائدة » • ويقول فى هذا المضمار : « بينما أطلع يوما رواية « خاتم عقد بنى سراج » التىألفها (شاطوبريـان) رئيس الادباء الفرنساويين تعلقت همتى بترجمتها لما رأيت فيها من الفائدة للمطـالع من حيث إنهـا أنـدلسية تونسية • ويمكن بمطالعتها معرفة مقدار البراعة فى الجمع مع النظام العجيب بين تشخيص الوقايع التاريخية والمواقع الجغرافية وعوائد وأخلاق ثلاث أمم ، واعطاء كل مترجم له حقه بانصاف تام بقطع النظر عن المعتقد والدين » (3)

---

(1) وظيفته الاجتماعية الرسمية حسب ما جاء فى صفحة الغلاف •

(2) مقدمة « طلستوى » •

(3) مقدمة « خاتم عقد بنى سراج » •



ولا يكفي محمد المشيرقي بالترجمة بل بالتعريف بالمؤلف والتعقيب على انتاجه كي يكون ذلك تمهيدا للقارىء وتبسيطا للتذوق والفهم ٠

ولقد عرفنا محمد المشيرقي بـ « شاطوبريان » فكتب كلمة قيمة عن حياته ومؤلفاته ٠ وقبل ان يقدم لنا الأثر المترجم كتب لنا عن « بنى سراج » وعن مجدهم فى الاندلس ملخصا ومعتمدا فى ذلك على « دائرة المعارف الكبرى الفرنساوية » (1) كما مهد لنا السبيل أيضا للاطلاع على « طلستوى » ٠ فكتب ترجمة حياته (محلاة بصورة) ونسخ « الشوقية » و « الحافظية » اللتين ترثيان فى ذلك التاريخ « ليون طلستوى » ٠ ثم ترجم فقرات من « الحرب والسلم » ومن « آنه قرانين » (Anna Karenine) وبعد ذلك نقل قصتين الاولى بعنوان : « أسباب حياة الانسان » والثانية بعنوان : « كم يكفى الانسان من الارض ؟ » وقد ألفهما « طلستوى لتهذيب أخلاق القرويين وإرشادهم للمعاملة بالحسنى والصدق والاخلاص والقناعة » ثم ختم هذا التقديم بنشر آراء « طلستوى » الفلسفية فى « الحياة » و « الدين » و « الفن » و « الحب » و « الوطنية » و « الموت » الخ ٠٠٠ (2)

من هو محمد المشيرقي ؟

نكاد لا نعرف شيئا عن محمد المشيرقي اللهم ما وجدناه في صحف تونسية قديمة وفى مقال للاديب المرحوم مصطفى خريف فى زاوية « نحن نمشى » بجريدة العمل الغراء بتاريخ 26 اكتوبر 1962 ، بدون ذكر تاريخ مولده ووفاته ٠ فلم يعتن به أحد ولم يطبع كتاباه ثانية فبقى ذكره خاملا مندثرا بشهادة المرحوم مصطفى خريف نفسه ٠

وقد جاء فى مقاله ما يلى :

« نشأ فى عائلة حضرية محترمة ٠ كان من أوائل الدفعات التى خرجتها المدرسة الصادقية تحت برامجها الاصلية المؤسسة لاجل فتح نوفذ تطل على آفاق الحياة الفكرية العالمية ٠٠٠

---

(1) صفحة 17 من **الخاتم** ٠

(2) من صفحة 1 الى صفحة 51 من « **طلستوى** » ٠

يتابع مطالعة الكتب والصحف التى ترد من الشرق والغرب ولا ينفك عن تغذية مداركه ٠

اكتسب ملكة فى اللغتين العـربية والفـرنسية والترجمة بينهما ، فعين كاتبا ومنشئا ومترجما فىاقسام الوزارة الكبرى ٠

كان صاحب أوليات فى تاريخ الانتاج الادبى الامثـل ٠٠٠ يقـرأ الشعـر باللغتين ، وينظم العربى منه كأحسن ما ينظم الشعر ٠٠٠

(ثم يتعرض المرحوم مصطفى خريف الى ترجمة الكتابين المذكورين ويقول بعد ذلك) :

كيف كان مصيره ومن هو ؟

محمد المشيرقى اصطدم مع الغطرسة الاستعمارية فى الادارة فاستقال أو أقيل ٠ واختلت قواه الفكرية ٠٠٠ وفقد سمعه ، فعـاش بقيـة حيـاته فى حمام الانف » ٠

« خاتم عقد بنى سراج » و « طلستوى » :

لقد ترجمت « آخر بنى سراج » ترجمات عديدة فى الاقطار العربية نذكر منها ترجمة أحمد الفاغون (الجوهر الوهـاج المنفوسى فى غرائب ابن السراج الاندلسى) الجزائر 1864 (1) وترجمة محمد لطفى المنفلوطى فى مصر وقد حشرها فى كتابه « العبرات » المعروف ، وترجمة الامير شكيب أرسلان وغيرها ٠ ويبدو ان ترجمة محمد المشيرقى لا تقل جودة واخلاصا عن الترجمات الاخرى أن لم تكن تفوقها امـانة وشرحـا وتقديما ٠ وذلك يظهر واضحا وجليا عند المقارنة بين نص المشيرقى ونص المنفلوطى مثلا اللذين فى متناولنا ٠ واذا ما

(1) القصة فى الادب العربى الحديث ـ الدكتور يـوسف نجـم ٠ بيروت ٠ الطبعة الثانية 1961 ـ ص 18 ٠

ملاحظـة : نشكر الاستاذين محمد الصالح المهيـدى والبشيـر الخنقى على المعلومات التى تحصلنا عليها منهما ٠ (ع٠ م٠)

طالستوي

ترجمة حياته – منتخبات من تآليفه وقصصه – آراءه الفلسفية

ثم

روايته

سلطان الضلال

تأليف وتعريب

محمد المشيرقي

الحرز على الشهادة العليا في الترجمة واللغة العربية

والمترجم بالدولة التونسية

١٩١١

طبع بمطبعة التقدم الاسلامية لصاحبها البشير الفورتي

بنهج الفني عدد ٣٤ بتونس

قارنا بين النص الفرنسي ونص الترجمة للمشيرقي فاننا نلاحظ اجتهادا حسنا من قبل الناقل وتمكنا في الترجمة ومعرفة جيدة لفرنسية « شاطوبريان » • لكننا لم نجد من ترجم انتاج « طلستوى » القصصي قبل محمد المشيرقي وبالخصوص بين الفترة الواصلة بين سنة 1870 وهي السنة التي أحصى فيها الدكتور نجم (ومن قبل هنري بيريس في نشريته بعنوان الرواية في الادب العربي الحديث) الكتب الفرنسية التي ترجمت الى العربية بين سنة 1911 وهي السنة التي ترجم فيها المشيرقي لـ « طلستوى » (1) •

والملاحظ اننا نعتبر صدور « طلستوى » في تونس سنة 1911 هو حدث أدبي هام ؛ لأنه فتح الطريق للأدباء التونسيين آنذاك للاطلاع على أدب الغرب عموما وعلى القصة الغربية بالخصوص • وهو حدث أدبي هام في مستوى العالم العربي ؛ لان المشيرقي ترجم لهذا المؤلف الروسي الكبير بعد سنة واحدة من وفاته • وهذا ما يدل على رغبة العرب في معرفة أدب الغرب وثقافته ، ومن ثم نسج القصة على منواله ، ومن ثم كذلك فتح السبيل لترجمة إنتاج العظماء المفكرين في الغرب ولا لصغار المؤلفين كما فعل ذلك طانيوس عبده واسكندر الشلفون ونجيب طراد وغيرهم الذين انتقد الدكتور نجم ترجماتهم انتقادا لاذعا في كتابة « القصة في الادب العربي الحديث » • (2)

على اننا لم نجد الاصول الفرنسية التي نقل منها محمد المشيرقي انتاج « طلستوى » ، لان الترجمات الفرنسية لهذا المؤلف عديدة ومتنوعة • لكننا نؤكد مع ذلك ان اسلوب المشيرقي هو في مستوى لائق من الجودة والاتقان والامانة • وهذا ما نلاحظه أيضا بالنسبة لترجمته لشاطوبريان •

ومهما يكن من امر فان الكتابين يعدان وثيقة أدبية تونسية وعربية تبين لنا مدى توق تونس والامة العربية الى معرفة الادب الغربي وأعلامه في ذلك الوقت الحاسم من حياة البلاد •

---

(1) Henri Pérès : *le Roman dans la littérature arabe moderne.* Alger 1938.

(2) المصدر المذكور •

نمـوذجان من ترجمـة الشيرقى :

I ــ خـاتم عقـد بنى سـراج

لشـاطو بريـان (ص 26/25)

....

مضى أربعة وعشرون عاما من الاستيلاء على غرناطة . وانتقل فى أثنائها الى رحمة الله تعالى أربعة عشر من بنى سراج لتأثير مناخ جديد وفواجىء حياة قضيت تيها وخصوصا من الشجب المنهك للقوى الانسانية . ولم يبـق من هذا البيت الطائر الصيت إلا فرد واحد كان محط آمالهم : وهو ابن حامد الذى اتهمه بنو زكرى بحب الملكة الفاهمة . وكان هذا الشـاب زيـادة على بهـاء وشهامة ولطافة وكرم أجداده جليلا آسفا للحزن الخفى المتولد عن سوء المتغلب متحملا إياه بعز وشجاعة . وقد توفى الله والده وهو فى الثانية والعشرين من عمره . فعزم حينئذ على زيارة وطن أسلافه ليشفى غلة أحرقت فـؤاده ، وينجز مقصدا اهتم باخفائه على والدته .

فابحر بثغر تونس وساقه الريح المساعف لمرسى قرطاجنة (1) ، فنـزل وقصد توا غرناطة وحلى نفسه باسم « طبيب عربى » . اتى يتبقل بصخـور آكام جبـال « سيار انفدى » فأخذ فى السير الهوينا على بغلـة هادئة فى بلاد كانت فى سالف العصر يطير بها بنو سراج على جياد حربية . وكان يؤمه دليل يقود بغلتين مزينتين بنواقيس وخصل صوفية مختلفـة الالـوان . وبعد ان اجتاز ابن سراج ودليله منابت الاريقى وغابات النخيـل بسلطنـة مـرسية استنتج ابن حامد من شيخوخة النخيل أنه غرس آبائه فامتلأ قلبه أسفا أليما . وكان بتلك الانحاء برج يرابط به العسكر أيام الحـرب الاسـلامية المسيحية وخراب يلوح من رسم بنائه انه اسلامى الاصل فكان ذلك داعيا زائدا لتهييج أشجان ابن سراج الذى ترجل وقتئذ متعلـلا بالتفتيش عن بعض النباتـات واحتجب ساعة بين الاطلال مطلقا لدموعه العنان .

....

* * *

(1) هو اسم بلدة على شواطى اسبانيا الجنوبية . (ملاحظة المترجم)

II ـ الحـــب

لطلستــوى (ص 19/18)

« محادثة بين الكونت فرونسكى وآنه قرانين »

قالت آنه قرانين : « اذا كنت مخلصا أمينـا فى محبتك مثلمـا تصـرح به اقتف خطة ترجع على بالهناء اذ انى لم أخجل قط لدى كائن من كان وتدخـل على الاسف الناكد لو تحس انى مجرمة » ٠

أجابها الكونت همسا بدون ان يقدر على التجاسر بالمجاهرة : « هلا علمت انك روحى ؟ قـد بلبلت راحتى ولا طاقة لى على ادخال الهناء عليك ـ افديـك بحياتى وحبى ولا أمل لى سوى التعاسة والقنوط او النعيم ٠٠٠ وأى نعيم ! هل حقيقى استحالة البلوغ اليه ؟ » ٠

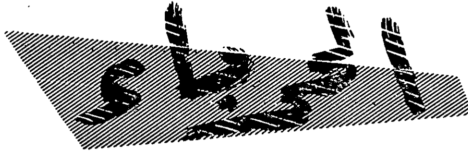
قال فم آنه قرانين : « لنعش صديقين ولا تعد أبدا الى مخاطبتى بمثل هذا » ولكن لحظها كان يخدعها ٠

أجاب الكونت : « يستحيل أن نكون أبـدا صديقين وانـك لتعلمين علـم اليقين هاته الحقيقة وغاية أملى هو حق الرجاء والتوجع مثل آلان ، واذا قابلتنى بالرفض فامرنى بالاضمحلال كى اضمحل ولا ترينى أبدا اذا كدرك جوابى » ٠
قالت آنه قرانين : « لا أطردك » ٠

فاستمرا على المقابلات، وتمادى الحاح فرونسكى الى أن قال لها يوما : « انك لم تعـدينى بشىء قط وهو أمر لا مـراء فيه ، ولكنـك تتيقنين انى لا أخطب صداقتك ، وفيما يخصنى فان أسباب حظى بالحياة الدنيا منوطة بتلك الكلمة التى تكرهينها كثيرا الا وهو الحب » ٠

قالت آنه قرانين بتأن : « الحب ! نعم انى أكره هاته الكلمة لان معناها عندى أعظم وأجل مما يتصوره عقلك » ٠

* * *



قصـة : لانطـون تشيكـوف
تعريب : سميـــر العيـــادى

يخترق او تشملوف ، مفتش البوليس ، ساحة السـوق ، مرتديـا معطفـا جديدا ، حاملا تحت ذراعه علبة ٠٠ يتبعه « سرجان » وبيديه غربـال مملـوء بالكشمش المحجوز٠٠ يسود الهـدوء ٠٠٠ لا احـد بالسـاحة ٠٠ الدكاكين والحانات ذات الافواه المفتوحة جوعا تنظر حزينـة الى عالم الخالق ٠٠ لا ناس فى تلك الجهة ، لا ولا حتى متسول ٠٠

فجأة يسمع اوتشوملوف صياحا :

ـ اوه ٠ ولكنك تعض ايها الحيوان الملعون ، لا تتركوه يهرب ، يا جماعة ٠ فى يومنا هذا اصبح العض ممنوعا ٠ امسكوه ٠٠٠

ثم ينبح كلب ، فينظر اوتشملوف حوله ليرى الحيوان يجـرى خـارجا من مستودع الخشب الذى يملكه التاجر بتشوقين ، عارجا ، ملتفتا الى الوراء ، ومن خلفه يلاحقه رجل ذو قميص من القماش المنشى ، وجمازة غير مقفـولة ٠ ثم يرمى بنفسه على الارض ليمسك الكلب من ساقيه الخلفيتين فيصيح الكلب مرة أخرى ، ويصيح رجل :

ـ لا تتركه يهرب ٠

وتظهر بابواب الدكاكين وجوه يغالبها النعاس ٠ وفى لحظة وجيـزة يلتئم جمع من الناس حول مستودع الخشب ، وكأنهم خرجـوا من الارض ويتقـدم « السرجان » نحو أوتشملوف ويقول :

ـ يظهر أن هناك ضجة ، يا صاحب السيادة ؛

فيميل المفتش الى اليسار ، ويقترب من القوم ليجد صاحب الجمازة غير المقفولة واقفا بالقرب من باب المستودع ، رافعا يده اليمنى فى الفضاء ليظهر للناس أصبعا مجروحة ، وعلى وجهه علامات النشوة ، وعبارات الفوز كأنه يقول « سأمزقك اربا اربا ايها الكلب » واصبعه اعظم راية لانتصاره ٠

كان أوتشملوف يعرف ذلك الرجل فهو خريوخين الصائغ ، اما المسؤول الاول عن الفضيحة فقد انتصب على الارض مرتعد الفرائض ٠ لم يكن سوى كلب صيد أبيض صغير ، أنفه حاد ، وعلى ظهره علامة صفراء ، بينما عيناه امتلأتا هولا وجزعا ٠

ويخترق المفتش الصفوف صائحا :

ـ ماذا جرى ؟ ماذا هناك ؟ ما هذه الاصبع ؟ من الذى صاح ؟

فينفخ خريوخين وراء اصبعه ثم يجيب :

ـ أتيت مطمئنا يا صاحب السيادة ، لا تحدث مع ميترى ميتريتش عن الخشب ٠ لم اكن قد أسأت لأحد ، وها ان هذا الحيوان الملعون يرتمى على بدون سبب ويعض اصبعى ٠ المعذرة يا صاحب السيادة ، ولكنى انا رجل عامل وعملى يتطلب الدقة يجب ان اتحصل على تعويضات ، لانى سأتعطل مدة اسبوع كامل على الاقل ، قبل ان استطيع تحريك اصبعى ٠ لم يقل لنا القانون بان نترك انفسنا ضحية للحيوانات ٠٠ ان اخذت كلها تعض وتنهش فان حياتنا ستصبح جحيما لا يطاق ٠

فيقطب المفتش حاجبيه ويرفع صوته :

ـ حم ٠ حم ٠٠ طيب ٠ حسنا ٠ لمن هذا الكلب ؟ لن يمر الامر هكذا ٠ سأعلمكم كيف تتركون كلابكم تجرى فى الطرقات ٠ حان الوقت لاهتم بهؤلاء الذين لا يطيعون تعاليم القانون ٠ عندما ينال غرامة ، هذا الملعون ، سيعلم ما معنى حرية الكلاب وبقية القطعان ٠٠ ساعلمه كيف يعيش (ثم يلتفت الى السرجان آمرا) الديرين ، ابحث لمن هذا الكلب وحرر تقريرا ٠ كما يجب قتل هذا السافل حالا ٠٠ لا شك انه « مكلوب » هيا قولوا لى ، لمن هذا الكلب ؟

فيسود الصمت لحظة ، ثم ينطق احد الحاضرين ، دون ان يظهر وجهه ·

ـ يظهر انه من كلاب الجنرال جيقالوف ·

فيهتز أوتشملوف ويشعر بالعرق يسرى على كامل جسمه ويقول :

ـ الجنرال جيقالوف ؟ حم ·· حم ·· الديرين ، ساعدنى كى انزع معطفى يا للهول ! يا لها من حرارة ! اكيد أن السماء ستمطر · ولكن هناك شىء لم افهمه يا خريوخين · كيف امكنه ان يعضك · هل يستطيع الوصول الى اصبعك ؟ انه صغير جدا ، بينما أنت عملاق باتم معنى الكلمة · لا بد ان مسمارا جرح اصبعك ، ثم جاءتك فكرة وضع ذلك على حساب الكلب · انى اعرف الناس امثالك ·· انكم سفلة ·

فيصيح احد الحاضرين :

ـ لقد ادخل فى فمه سيقارة ليتفكه · لكن هذا الحيوان لم يكن غبيا ، يا صاحب السيادة ، فلقد رد عليه بضربة باسنانه ·· انه رجل خبيث ، يا صاحب السيادة ·

ـ انت تكذب ايها الاعور · انك لم تر شيئا ، فلماذا تكذب ؟ سيادته رجل ذكى ، يعرف من الذى يكذب ومن الذى يقول الحقيقة كما يمليها الضمير · وان كان الكاذب هو انا ، فلنذهب الى القاضى ، انه يعرف نص القانون · الكل متساوون فى يومنا هذا ·· ثم ان شقيقى من الجندرمة ، ان لم تعلموا ذلك ·

ـ دع عنك هذه الفلسفة ·

ثم يلاحظ « السرجان » بعد ان افتعل التفكير الطويل ··

ـ لا انه ليس من كلاب الجنرال · الجنرال لا يملك كلابا من هذه الفصيلة ·

ـ انت متأكد ؟

ـ نعم ، يا صاحب السيادة ·

ـ ثم انى كنت اعرف ذلك · الجنرال لا يملك الا الكلاب الرفيعة الثمن · الكلاب الاصيلة ، بينما هذا · الله وحده يعلم من اين هو · انه لقيط · كيف يحتفظ الناس بكلب كهذا ؟ اين رؤوسكم ؟ لو كان فى بيترسبورق او موسكو

هل تدرون ماذا يصنع به ؟ بصرف النظر عما يقوله القانون يقتل حالا ٠ انت الضحية فى هذه القضية يا خريوخين ٠ ولن اترك الامـر هكذا ٠٠ يجب ان اعطيهم درسا ٠٠ حان الوقت ٠٠

لكن « السرجان » تمتم بصوت عال :

ـ ربما يكون للجنرال ، مع ذلك ، فلقد رأيت فى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه اليه ، كلبا كهذا فى حوشه ٠

وقال احدهم :

ـ اكيد انه للجنرال ٠

فلم يتمالك أوتشملوف فاهتز وقال :

ـ حم ٠٠ حم ٠٠ ساعدنى على لبس معطفى يا عزيزى الديرين ٠٠ يظهر ان الريح قامت ٠٠ الطقس برد ٠ احمل الكلب الى الجنرال واستخبر قل لهم انى انا الذى وجدته وارسلته اليهم ٠ وقـل لهم ايضا بان لا يتركـوه يخـرج الى الشوارع ٠٠ لعله كلب ثمـين ٠ واذا اخـذ اول خنزير يلاقيه يعبث بموضع السقاير فى فمه ، فانه سيتألم ٠٠ الكلب حيوان رقيق ٠ اما انت ، يا غبى ، اخفض يدك ٠ لا موجب لرفع اصبعك فى الفضاء ببلاهة ٠ انها غلطتك انت !

ـ ها هو طباخ الجنرال ٠ لنسأله ٠ بروخور ، تعال هنا لحظة ، يا صديقى ٠ انظر هذا الكلب ٠ هل هو لكم ؟

ـ ماذا تقول ٠ أبدا ٠٠٠ لم يكن لنا كلب كهذا ٠

فيصيح أوتشملوف ، ظافرا :

ـ لا فائدة من وراء كل هذه الاسئلة ٠ انه كلب مشرد لا شيء غير ذلك ٠٠ ان قلت انا انه كله كلب مشرد ، فانه كلب مشرد ليقتل ولننته منه ٠

لكن بروخور يضيف :

ـ هو ليس لنا ٠ انه كلب شقيق الجنرال الذى جاء منـذ مـدة ٠ سيدنا لا يحب السلوقى ٠ ولكن شقيق سيادته يحبه ٠

ـ شقيق معامية هنا اذن ؟ فلا ديميرايفانيتش ؛ الاهى ؟ وانا اعلم بذلك ! هل جاء ليمكث طويلا ؟

فينظر بروخور الى وجه أوتشملوف الذى شع بابتسامة رقيقة ويقول :

ـ نعم ٠ جاء فى زيارة ٠

فينساب المفتش فى فرحة وابتسامة ، ويواصل تعليقه على قدوم شقيق الجنرال :

ـ الاهى ٠٠ اذن السيد العزيز اشتاق هكذا ليرى اخاه وأنا كما ترى ، لم اعلم بذلك ٠ اذن ٠ هذا الكلب من كلاب شقيق معاليه ؟ انا مسرور جدا بذلك٠ احمله معك ٠ إنه كلب صغير جميل ٠ انه كلب ذكى ٠ لقد اكل بعضا من اصبع هذا الشخص ٠ ها ها ها ولماذا ترتعد ٠ يا كليب ؟ قرقر ٠٠ انه غاضب ، الملعون الصغير ! كم هو لطيف ؟ ثم ينادى برخور الكلب الذى يتبعه خارج المستودع ، وترتفع قهقهة القوم ضاحكين على خريوخين بينما يهدده أوتشملوف :

ـ سيأتيك بالاخبار ٠٠٠

ثم يلتف بمعطفه ويواصل سيره عبر الساحة ٠٠٠



بقلم : يحى محمد

تحركت الخواطر فى مخيلته ، فلاح له الوجه الجميل ٠٠ اخذ يرمقه بنظرة فاحصة من بريق أجفانه ٠٠٠ كان ينشـد فى نفسه فرصة اللقـاء هذه ٠٠٠ أيعانقها بعينيه فى شغف ينسيه آلامه وكلومه ؟

وأحس بان مواهبهـا ثـرية حـين حيته بنظرة خفية ٠٠٠ عاطفتهـا تتقد حرارة ٠٠٠ هى تحاول ان تحرك شجونه ٠ ما أحلى طفولتها البريئة أيتقول لها كلمة من همسه الساحر ؟ ٠٠ لا شك انها تترقب ذلك ٠

وأرهق ذهنه محاولا الافصاح عما بداخله من لواعج ٠ ونطق فى جرأة :

ـ سلوى ٠٠ ما أجملك !

ونماطى هذا الاسم الزرع الاخضر فى بستان والدها ٠ وأدركت انها وحيدة بجانبه ، فيبس ريقها ، واعترتها فترة من خجل برىء ، وأحست بالاختنـاق يشل ارادتها ٠

كانت تهوى هذه الخلوة الحبيبة من زمان ٠٠ لكن الحيرة غلبتها ، وشعرت بان كلمة « سلوى » تفتح نافذة على احلامها ، فاخذت ترددها فى سرها ٠٠٠ ماذا تعنى كلمة « سلوى » حين ينطق بها أحمـد ابن عمهـا ٠٠؟ أهى الحب ؟ وماذا تأمل بعدها اذا كانت هى ٠؟٠ وهـل تستطيـع البـوح بها بشجاعة ؟ منذ طفولتها وهـذه الكلمـة تدغـدغ عـواطفها مذ كانت تلهـو معـه فـوق جسر الوادى ، وبين الأعشاب ، هل تتيح لها كل الفرص التى تتمناها ؟ ٠٠

كانت واقفة بجانبه تتفـرج على أجنـة « سيدى بورويس » اليـانعة ٠٠٠ بستان والدها ما أجمله ! الماء الذى يتدقق كالشلال يسقى الحقول ، وقـرص الشمس يلتهب التهابا ٠٠٠ ما اروع طبيعـة الربيـع الاخضـر ٠ وتضرجت وجنتاها حين تسربت انامله بلطف تداعبها ٠٠ سمعت همسة شـاعر يهتـز جأشه ، ويخفق قلبه ، ويقهره انفعال الكشف عما يريد ٠٠ ألا تتذوق سلوى طعم هذه الخلوة ؟ هل يعانقها حتى بأجفانه اذا لم يستطع ؟ وأصعد الى صدرها الشهى نظرة حائرة غريبة ، وجمع شتات خواطره الضائعة :

ـ أتتمتعين بحلاوة اللقاء يا سلوى ؟

وردت فى لهفة :

ـ انى انتعش مثلك ٠٠ لكن ٠٠

فاهتز لهذا الاستدراك ، وألح عليها أن تواجهه بالحقيقة ، بينما كانت تغمره بتيار جارف من عينيها ٠٠٠ شرارات استضاءة نادرة ٠٠ لمـاذا يطلب منهـا المستحيل ؟ ألا يعرف قساوة عمه ؟ أكانت هذه الفرصة سانحة لو لم يكن عمه فى العاصمة اليوم ؟ ثم سرح أصابعه فى ذراعيها ٠ وصوب نظرة ملحـة نحـو قوامها الفاتن ، وارتفعت الى مسمعه تنهيدة من صوتها :

ـ هل تنفع معه شتى الحيل ؟

واحتار أحمد ، واهتز لها فى استغراب ، واضاف :

ـ واجهى قساوته بشجاعة ٠٠

واحسست بلسانها يتحرك دون موافقتها :

ـ على شرط ان تقلل أنت من هذه الفرص !

وبادرت عيناه فى استغراق نظرة شاردة نحو الاجنة اليافعة ٠٠٠ وأراد ان يحول نظرتها ، ماذا تعنى هـذه الاغصـان المتـرامية على الارض ، أغصـان المشمشة ؟٠٠ ما أجمل هذا العقد المتكامل ، أتتشابك الاغصان فى تـلاحم ؟ وقبل أن يضمها الى صدره ، أحس بمـرارة تسيطـر عليه ، كان ينظـر الى البستان فى جفوة ٠٠

هل صحيح أن هذا البستان يملكه عمه صالح ؟ ..

انه يتذكر ما نشب من خلاف بين عمه ووالده قبل مماته بأيام ...

وأبعد عن الوساوس ، وألقى نظرة على قامتها الجميلة ، وكان يودعها حينما اجتازت جسر الوادى ، فى استعطاف رقيق .

* * *

« ... لماذا ذهبت الى دار عمك ؟ أنسيت ما بيننا من خصام منذ مدة »

بهذا اللوم استقبلته أمه ، فى غضب متناه .

... لو أخبرها بانها مجرد زيارة ، هل تصدقه ؟ لكن لماذا لا يخبرها بعزمه الراسخ ؟.. سلوى .. ابنة عمه القاسى ، ماذا جرى لو تحققت أحلام يقظته ، لو صارحها بالحقيقة ، لكن أمه باغتته بالسؤال الذى رنت أجراسه فى اذنيه :

ـ لتكن هذه آخر زيارة .. أفهمت ؟

وشعر بمنافذ الطريق تسد فى وجهه ، لكنه صمم أن يقول كل شىء ، وطغت فى ذهنه رغبة لا يدرى كنهها ، وحثه القلق الحانق فى نفسه أن يبادر بالخروج من المنزل . فلم يستطع ذلك . وحين دخلت أمه غرفته أسرع يرافقها وهى تقتعد مكانها بجانب منضدته ، ورفعت رأسها وقالت بصوت متقطع :

ـ من ناحية سلوى فان عمك لا يريدها لك اطلاقا ... ماذا بقى لك فى هذه الدار ؟

فرد عليها فى تفاؤل مصطنع :

ـ لعله يرضى فى النهاية .

فقالت له بصرامة :

ـ انى ادعوك بأن تتناساها ..

ودفعتها الحيرة من جديد :

ـ أأثقلت رأسك العاطفة ، يا بنى ؟

ثم وقفت على حافة سريره ، وأرهفت أذنيها لصوت صرير الباب الخارجى ٠٠ ربما يكون ـ مبروك ـ قد اتى ، واستمعت الى سعاله حين اجتاز فناء الدار ، واقترب من الغرفة قائلا فى ذهول :

ـ مساء الخير ٠٠ عما ذا تتحدثان ؟

فرد أحمد على عجل :

ـ أيهمك ما نتحدث فيه ؟

فقالت أمه ، وقد جلست القرفصاء :

ـ الحديث عن عمك ٠

فصاح مبروك فى خبث :

ـ بل عن سلوى ٠٠ أليس كذلك ؟ ان عمى يتهاون بحقوقنا ، وأحمد يسارع ليمد يده اليه !

واسكتته أمه باشارة حادة من يديها ، وقد تقلص وجهها :

ـ لا تتحدث هكذا ٠٠٠

وتخاذلت قواها ، فالمرض العضال ينهش صدرها ، وتذكرت الدواء ، وطارت من ذهنها الفكرة ، وهى بصدد التفتيش عن علبة الاقراص ، ووجدتها بعد طول عناء ، واضافت ببرودة وارتخاء :

ـ صحيح عمكما تهاون بحقوقنا ٠٠ ولكن ما حيلتنا وقد نجح ؟ ٠

وعاودتها الآلام ، فانكبت بجسمها على السرير ٠ وشعر أحمد ، وهو يحث خطاه ليضع وسادتين وراء ظهرها المنهوك ، بانه المغلوب على امره ، فأراد ان يكفر عن هذا الاثم الذى بعث فى نفس أمه الجرح القديم ، فابتعد قليلا عن الفراش ، وهو يجتر خواطره المرعبة ، وتحرك ذهنه يرشده بتأنيب مر ٠٠٠

··· تبا لاسرة يعشش الطمع الرخيص بين احضانها ·· عمى أكل كل شيء ·· داره تعج بالنساء ··· أطباق عشائه يتخاصمن على ترتيبها ، يا له من رجل مزواج !·

وتمتم فى تلعثم :

ـ انها حكاية غريبة ، يا أماه ··· عم يستولى على املاك شقيقه ، ويحرم ابناءه من كل حق !!··
قالت بصوت واهن :

ـ الدنيا فانية ، يا بنى ··· ماذا يحمل الانسان معه الى القبر ؟

وتطلعت الى عينيه ، وحين لمحت شرارة الجد بادية عليهما ، أضافت :

ـ والدك ـ الله يرحمه ـ سهل الانقياد ، طيب القلب ، مشبع بالعطف ·

وابتسمت فى هدوء ، وشاع الحنان على وجهها :

ـ كان لا يفرق بينه وبين شقيقه ··

ونطق الصبى ـ مبروك ـ فجأة :

ـ اذن هنشير الساقية لأبى ··

ـ حديثى عنه يا بنى !· وعن الارباح الطائلة التى تمسك بها عمكما !

وساد الصمت · وطفحت فى ذهن أحمد صور من الحقد ازاء عمه · وأشرقت القصة من جديد فى عقله ، فتابع خيوطها منذ الطفولة ، وتذكر مشاهد مختلفة من الخصام بين عمه ووالده · لكن ما علاقة كل هذا بسلوى ؟·· يجب أن ينسى المشكلة من أساسها ··· إنه مدين لتاريخ حبه العنيف ··· كيف يرمى به الى لحد عميق؟·· حب صنعه بيديه منذ صباه·· نما وترعرع فى روحه··· وهنشير الساقية !·· شيء آخر ···

* * *

ـ أنا واثق من ان هنشير الساقية لأبى ··

رد عليه عمه وقد ارتعشت اعصابه :

ـ ليس لوالدك حق فيه ٠٠ اما زلت تتعنت ؟

ـ كل الناس يعرفون الحقيقة ٠٠

ـ ومع ذلك فعمك ينكر هذا الاجماع المزعوم ٠

ـ على كل سأرفع الأمر الى القاضى ٠٠

واستولت على عمه الرجفة وأضاف ، وقد خفق قلبه :

ـ سيقول لك هل من حجة بيديك ؟ نعم هكذا سيقول ٠٠٠

ورفع كتفيه ، واخذ يتمتم ، وكأن الجنون قد مس عقله فارتعدت أوصاله ، وراح يشتمه ٠٠٠ وما ان تذكر الوصية حتى ارتاح ضميره ٠٠ ماذا يقول اذا صادمه بها ؟ كل شهود ـ الوصية ـ أموات الآن ٠ لكن الحيلة كشفتها الايام٠٠ ربما يتفطن لها أحمد ، خاله مرزوق قص عليه الحكاية من أولها ٠٠٠ كانت الوصية مزورة ٠٠٠ حيكت خيوطها بعد ممات والده بأيام ٠٠٠ وانتشر الخبر آنذاك ، لكن مرزوق كتمه عن أمه ٠ قيل ان والد احمد ترك هنشير الساقية لاخيه صالح على ان يتصرف اولاده فى مخلفات الجدود ، وهى عبارة عن ارض قاحلة ، قتلها النسيان ، وعبث بها الانجراف ٠

بقى أحمد فى صمته ، يكتفى بنظرة ما الى عمه ، وتراجع صوته مدحورا الى حلقه ، وانقطع الحديث بينهما ٠ كان كل منهما ينظر للآخر نظرة استفسار وحيرة ٠٠٠ وهمس رجل لصاحبه من المارين وكان قد اهتم بحوارهما المنفعل :

ـ الحق مع الشاب ٠٠ من ينصفه يا ترى ؟

أردف الآخر يقول :

ـ ومن يتجرأ على صالح الأحدب ؟٠٠

ـ يظهر ان المعركة بينهما كانت تجرى فى الخفاء ٠٠

وتململ صالح وتنهد متحسرا وقال فى نفسه ٠٠ الله يلعنك يا شيطان ٠ وكان قد وصل مقهى البلد ، وقطع تجواله الذهنى حول الهنشير صوت أحدهم يرحب بمقدمه ٠٠ الجميع افترشوا ارضا ٠٠ لا تحلو القهوة الا بهذه الجلسة التقليدية ٠٠ وكثر اللمز والهمز من جماعة اخرى كانت فى الركن

المحاذى له ٠٠ تحسس صالح الفراغ الذى حوله ، وتنفس الصعداء ٠٠ وثنى ساقيه تحته ، واطلق فى سره وابلا من الشتائم ٠٠ ما زال فى حـالة تهيـج ، وضحك احد الشيوخ وهو يرمقه :

ـ مالك يا صالح ٠٠ الله يسامحك ، اتخاصمت مع احد ؟

قالها ، واخذ يقهقه ٠ واضاف :

ـ اشكون طير عليك السكرة ٠٠؟

ولما افاق صالح من حلمه قال :

ـ افكر فى (المندرة) يا اخى ٠٠ وقت الحصاد يكثرو اولاد الحرام ٠

رد عليه الشيخ باعلى صوته :

ـ اللى رزقو حلال ما يخاف من شىء !٠

وارتسمت فوق ملامحه متاعب رجل اجتر أوهامه ٠٠٠ دائما لم يشعر بأى لوم ولا تأنيب ٠ اما استفاق من نومه ٠٠؟٠٠ كل الناس يعرفـون الحقيقة ٠٠ حقيقة هنشير الساقية ٠!

* * *

امتطى قطار السادسة صباحا ، جلس حذو اقدام المسـافرين ٠٠٠ القطـار دائما فى اكتظاظه بالذاهبين الى العاصمة ٠٠ متى يصلها ٠٠؟ انه يعرف مجلس القضاة ٠٠ دار الشرع ، سيتجه نحوها حال وصوله الى تونس ٠

ومضى يتصور القضية من جديد ٠٠ لا يمكن أن يضيـع حقـه وحـق أمـه وشقيقه ٠٠٠ وقفزت به المشاهد ، وتذكر صراعه النفسى مع حبـه ، فقطـع تفكيره ٠ وكان القطار قد خرج من الداموس وأقبل على المحطة ٠ وأطل برأسه على الوجوه والرؤوس المشرئبة ، والتوى مع دوران السكك وانحناءاتها المختلفة الى ان استقر على الرصيف ٠

وطاف بشوارع العاصمة ، وظل يبعثر خطاه ٠٠ لقد كان يأتى الى الحاضرة

صحبة والده ٠٠ ووصل القصبة ٠٠ وظهر باب الديـوان ٠٠ وامتص شفتيـه حين صاح ، باش عون بأعلى صوته :

ـ هاو جاء سيدى القاضى ٠٠

وتكممت الافواه ، وساد الصمت بعض الوقت ، وانتهى الصخب ٠

كان أحمد يرقب هذه الحركة الغريبة فى ابتسام باهت ، وتوتر اعصاب٠٠٠ اينحنى كل الناس لجناب القاضى بهذا الشكل ٠٠؟ انهم يقبلـون صـدره عن تراض ٠٠ واندفع بعد ذلك نحو احد المكاتب ٠٠ وراح صاحب المكتب يفتش عن الاوراق ٠٠ اكوام الملفات فوق بعضها متراكمة على الطاولة :

ـ اتريد رفع قضية بعمك ؟

ـ نعـم ٠

ولمـاذا ؟

ـ لأنه بلع مخلفات والدى ٠٠ أخذها ظلما ٠

ـ هل انت واثق مما تقول ؟

ـ اذا لم اكن كذلك ، لماذا آتى الى هنا ؟

ـ اذن لا تنتظر كثيرا ٠٠ قضيتك مقضية ٠٠ هات دفعة على الحساب ٠

ـ اية دفعة ؟

ـ بعض النقود ٠٠

وبحركة غير عادية ، التفت وراءه ، وصافحت عيناه وجه الشيخ المنكمش وقد شعر بانقطاع خطواته من فناء مكتبه ، وراح يتنهد فى حسـرة ٠٠ هـات دفعة على الحساب ٠٠ وأحس بدوار فى رأسه ، وانتشـر الظـلام فى عينيه ، وارهف السمع ٠٠ انه صوت امرأة ٠ ٠٠ صوت رخيم مفعم بالأسى :

ـ سانزل به شر العذاب ٠٠ زوجك مختبـل ٠٠ ايضـربك بالسيـاط ؟ وأخذ الشيخ ينبح كالكلب ، ويطغى على افلاسه :

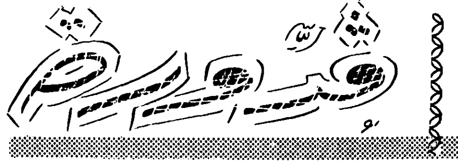
ـ هل اتيت بالصرة ؟•• آه •• حسنا •• سأكلف (بأش عون) بجلبه من سوق الشواشية •

وانطوى أحمد على نفسه ، وأخفقت محاولاته ، ثـم عاد من نفس الطريق ، وبلع ريقه •• واتجه الى المحطة •• محطة القطار عائدا من حيث اتى •

الصراع فى كل مكان •• امرأة الشواشى ••• انا وعمى ••• ضجيج فى دار الشرع •• معارك فى كل جهة •• سيأتى العهـد الذى نحتكـم فيه الى العـدل !

وعندما جنحت الشمس نحو المغيب ، امتد نظره الى الفضاء ، وغرس عينيه فى ابعاده •• وكان القطار يحث سيره بينما لمعت اشعة حمراء وراء الأفق •

يحـى محمـد



عبد العزيز فاخت

مكثت قدورة بمدينة قفصة ، فى خربة مع ابنتها اليتيمة ، بعد أن فقدت زوجها أثناء غارة جوية مفاجئة ، إبان الحرب العالمية الثانية • فقد كان يسقى حقله آمنا ، فأصيب بشظية فى رأسه ، فمات لحينه ، تحت نخلة باسقة • لا تزال قدورة تتردد عليها ، وتجلس تحتها ، تندب حظها ، وتستعيد ذكريات زوجها الأمين !

وفى ليلة من تلك الليالى الحالكة ! تمزق الظلام بقصف المدافع ، وأزيز الرصاص ، ودوى النفاثات ؛ فتصدعت الجدران ، وهوت السقوف على النائمين ، وتعالى الصياح والنواح من كل بيت •

وعلى كثب من الاحجار المتراكمة ، ارتفع صوت مبحوح ! يزيد الليل وحشة ، ويبعث فى السامع غمة وغصة ، صوت رضيع يردد مأساة الانسانية حتى الصباح ! واصبح الصباح ، فاذا الدخان المتكاثف ! يتجمع فى الفضاء ، تجمع السحب الدهماء ويخيم على المدينة باطياف الموت ، وملامح الحزن والشقاء !

وأسرع الرجال الى البيت المنهار ••• واستلوا من تحت سقفه المشتعل الرضيع ، مضرجا بدماء أبويه !

وخلف الجموع المفزعة ، وقفت قدورة باسطة اليدين ، لا تقوى على الوصول الى مقر الرضيع ، فاذا الناس يتراجعون الى الوراء ، متجهين اليها ، واضعين الرضيع بين يديها مرددين الواحد تلو الاخر :

ـ البركة فيك يا قدورة !

فترد عليهم بكلمات متقطعة ... ثم تعود الى خربتها ، تحتضن ابن أخيها ، وتضمه لابنتها اليتيمة ، فيشاطرها ما تجمع فى ثدييها من غذاء !

واستمرت الطائرات النفاثة والدبابات المصفحة تنشر الرعب فى كل مكان فلا راحة تسكن اليها النفس ، ولا أمن يطمئن به المرء ؛ فالجند يمحق الجند ، ويدمر ما اعترضه فى طريقه ، والسكان فى فزع وهول ، لا يطيقون العيش بين مخالب الموت الممتدة من كل صوب ، وفى كل حين !

واشتدت الحرب ، فاتسعت رقعتها ، وانصبت ويلاتها على المدن ؛ ففر السكان الى القرى النائية والواحات البعيدة ، خلف سلاسل الجبال الشامخة ، والغابات الكثيفة المخصبة ، وتركوا قدورة وراءهم تعتصم بخراب البيوت الخاوية ، وتستمد من وحشية المتطاحنين ، قوة الاحتمال ، والصبر على الشدائد ، فصمدت أمام الموت الذى خاف منه سكان المدينة ، وفروا من وجهه مرتاعين ! صمدت له بشجاعة ، ورباطة جأش تحنو على الرضيعين ، وتغذيهما رغم المجاعة ومصائب الحرب !

وكانت تقتصد فى استهلاك المواد الغذائية ، ولا تتناول كفايتها حتى تستعين بها أكبر مدة ممكنة . ولكن كميات الدقيق ، والتمر ، والزيت وغيرها ... نفدت فى مدة قصيرة ، فشعرت بالندم ولامت نفسها قائلة :

ـ لو فررت معهم ، لكنت أحسن مما أنا فيه ...!

وصممت برهة محدقة فى الظلام الدامس ، ثم تمتمت بصوت خافت تحدث نفسها :

« أفر معهم ؟ ! أأفر من الحرب والبسيطة قد أمست حرثا للمتطاحنين ؟ ! الموت فى كل مكان ! فلا داعى للهروب منه حتى لو حاولت الفرار مع أحدهم ، فلا أجد لذلك سبيلا ، فمنهم من ترك أقرب الناس اليه وفر بنفسه ، حتى أصبح الواحد منهم لا يفكر الا فى نفسه ! وكم كان يتردد على السنتهم : « النفس أبجل من الصاحب » ...

كانت تفضل الموت فى خربتها ، ولذلك جلست فى ركـن من أركانهـا ، تسكت الرضيعين بثديين ناشفين من كل غذاء ، يسكن آلام الجائع ، أو يروى غلة العطشان ، واشتد مصهما فاشتدت آلامها ، ودارت بها الخربة دورتين ... أحست اثرها بدوار يفصلها عنهما ولكن صراخهما ، ظل يعتمل فى أعماقها ، ويبعث فيها الثورة والنقمة ... فتهب قائمة ، وتتجه نحو الباب مرتعشة ، وبعد أن تتجاوز العتبة ... يرجعها الصراخ الى البـاب ، فتشـد خشبتـه بسلك لين :

من يدرى ؟ !

. . . .

لعل الكلاب الجائعة ... تستهدف الرضيعين ؟ !

قالت ذلك فى نفسها ، وهى تسير فى حى باب الجبل .. المقفر من السكان غير أفراد قلائل يبدون ويختفون بسرعة ... وواصلت سيرها ، فتناهى الى سمعها أنين أفزعها فثقلت خطواتها ، وانجذب جسمها صوب الانين المنبعث من ركن من أركان بيت منهدم ، فتسمرت عيناها فى الجثة الممتدة على الارض وحولها صغارها ، يمتصون أثداءها بحركة واهنة ، وهى لا تكاد تقوى على النهوض ، أو الامتنـاع ، كانت عيناهـا تلمعان ، وصوت الجـوع يتردد فى حنجرتها ضامئا مبحوحا ، كشرت عن أنيابهـا ، وتكومت على جرائها بحركة بطيئة ، وشرع فمها ينتفح وينغلق ... كانت المسكينة تهر بصوت لايكـاد يسمـع ... !

واحتبست آهة فى صدر قدورة ، طغت عليهـا زمجرة الجـوع الى احشائها ، فتحركت بها قدماها الى نهاية نهج سيدى الغربى ...

وهناك وقفت مذهولة ، تشاهد حركات عنيفة فى صفوف الجيش ، حـول سياراتهم المصفحة ، ودباباتهم الكبيرة ، وقد سـدت الطرقـات ، وأبـواب المنازل ، موجهة مدافعها المرعبة نحو السماء باكية ، وتعطل لسانها ، وتبلبلت كلمات كثيرة فى فمها ، كانت تحس أنها ستنفجر فى داخلها ، ولكنها سرعان ما تبددت ، وتساقطت مع عبرات كانت تجد الراحة فى تساقطها ...!

وعبرت نسمة لطيفـة ، فحملت اليهـا رائحـة طعـام المعسكـر ، فهمت بالذهاب ... ولكن صوتا غريبا تردد خلفهـا فالتفتت مذعـورة ، فاذا هـو

جندى طويل القامة ، عريض المنكبين ، ابيض البشرة ، أزرق العينين مدجج بسلاح خفيف ٠٠! فتراجعت الى الوراء خائفة ، فابتسم لها ثم خاطبها بكلمات لم تفهم منها شيئا ٠ وأمعن فيها النظر فاضطربت وعادت آدراجها مسرعا وظل هو ينظر اليها صامتا ٠٠!

ولما استقرت فى خربتها سمعت حركة مريبة خلف البـاب ففتحتـه فاذا الجندى واقف وبيده علب الزبدة ، والحليب المجفف ، ويشير اليها بأخذها ، وصرخ الرضيعان فانـدفعت اليهمـا بينمـا بقى هو ينظـر اليها فى حيـرة واندهاش ، وتقدم منها بعد أن وضع ما عليه من سلاح وما بيده من غذاء ٠٠٠ وأخذ يشير اليها بحركات كانت تفهم منها انه يقول لها :

ـ لا تخافى !

وأراد أن يطمئنها ، فدفع يده فى جيبه ، وأخرج صورة قربها أمام عينيها ، فاذا هي صورته فى بدلة مدنية ، وهيئة جميلة ، بجانبه امرأة شابة ، تضع يديها على طفلين يشبهانه كثيرا ٠ وطافت بمخيلتها صورة زوجها الـراحل ، وتمثل لها فى هيئة هذا الجندى الطيب ، فطفرت الدموع من عينيها ، وهزها الشوق اليه وأدرك الجندى ما تعانى ، فأعاد الصورة اليه يقبلها والدمع يتلألأ فى عينيه ٠٠٠ وبعد قليل وضعها فى جيبه وتناول سلاحه ثم قبل الرضيعين ، وأومأ لها بالتحية ، فردت عليه بالمثل وابتسم اليها وخرج ٠٠٠

وتكررت زياراته ، فلم تستطع منعـه ، ولا الاستغنـاء عنه ، ولمست فيـه الرحمة والشفقة ، فأصبحت تعرف أوقات زياراته ، فتنتظره ٠

وانتظرته يوما ، فطال انتظارها دون جدوى ، فترددت على البـاب مـرات ومرات ٠٠٠ ثم خرجت الى الشارع ، وواصلت سيرها الى نهاية الدرب ٠٠٠ ولما أبصرت مكان المعسكر خاليا عادت أدراجها خائبة ٠

ومرت أيام وهى على هذه الحال ٠٠٠ فلم تصبر ، فخرجت ذات يوم بعد أن أحكمت اغلاق الباب ، فلمحت أفرادا يسعون الى السـوق ، فتبعتهـم ٠ ولمـا تجمعوا فى صف قصير اندمجت فيهم ، وعلمت من أحدهم أنهـم جـاءوا من الغابات القريبة للحصول على مواد غذائية ، ستوزع على المنكوبين ، فـوقفت

تنتظر دورها · وجاء دورها فارتفعت صفارات الانذار ، وكر الجيش على المدينة ، وتراكض الجنود فى ساحة السوق فتفرق الجميع ، يحتمون بالجدران ، وجذوع الاشجار ، يترددون من مكان لآخر ، ودوى الطائرات ، يصم الآذان ويخطف العقول ، والرصاص يخترق الاجواء ، فيحيلها سحابا أحمر داكنا ، تضطرب تحته جثث بها بقية من حياة ، تصارع الموت ثم تجمد على قارعة الطريق ، أو بجانب الجدران المنهارة ، مفككة الاوصال ، مشلولة الاطراف ·

وكادت تنسى الرضيعين من هول ما هى فيه ، لولا رغاء صغير بجانب أمه الميتة ، فانطلقت مسرعة والرصاص ينهمر عليها ، والقذائف تتفجر بالقرب منها ولما وصلت الخربة وجدتها كدسا من الأحجار المتراكمة فسقطت مغشيا عليها ··· وبعد قليل أفاقت على صوت رجلين يحملانها الى تجمع منكوبى الحرب ··· وهناك قضت أياما مرة ··· الى ان وضعت الحرب أوزارها ·

هذه قدورة شبح الحرب العالمية الثانية ، يحكى الكبار قصتها للصغار فيهرعون الى بيتها بحى باب الجبل فتروى لهم فظاعة الحرب وقسوتها ، فينتشرون عنها متأثرين ··!

وفى بيتها تعيش بمفردها ، كشجرة ميتة الجذور ، يابسة الأغصان ، تصارع الزمان، فيوهنها بشعيرات بيضاء ·· ! ، تتسلق رأسها الى اليوم ·

عبد العزيز فاخت

الليلة الثانية بعد الألف

بقلم : رياض المرزوقي

أرق « شهريار » فى الليلة الثانية بعد الألف ، فدق الجرس :

ـ أين شهرزاد ؟

ـ خرجت فى الظلام ، ترسل الفكر فى السكون ، وتسمع غناء الصراصير٠

ـ خرجت ؟

ـ وصحبتها وزيرك يا مولاى !

عذب الصداع ملك الملوك ، وتراقصت أمام عينيه أجنحة دوامة ، وقرع رأسه ألف طبل ٠ وبعد دقائق ، طلب ماء مثلوجا و (دنيا زاد) وتبسم ٠

« يحكى يا ملك الزمان أن حطابا فقيرا يدعى (علاء الدين) كان يعيش بمدينة السلام ذات الألف زقاق ٠ وكان يحضر السوق كل يوم جمعة فيبيع حطبه ويشترى رغيفا يقطعه سبعة أجزاء، فيأكل كل يوم جزءا، ويحمد الله »٠

عيناها كبركة الحديقة صفاء وعذوبة ٠

وشعرها الفاجم كليلة فى الشتاء ٠

وجبينها كفجر فى الربيع ٠

« وفى يوم من الأيام ، كان يأكل نصيبه المعتاد يا مولاى ، واذا بكلب هزيل

أعياه الجوع ، وشفه الداء ، ما ضم اهابه سوى ضلوع معدودات وبقية رمق ·

ينظر الى (علاء الدين) ·

فرمى اليه الحطاب بكسرته فالتهمها الكلب التهاما ونظر طالبا المزيد فرمى اليه بنصيب الغد ، فنصيب بعد الغد ، فنصيب بقية الأسبوع ·

واذا بالكلب ينتفض فينقلب شيخا جليلا ذا مهابة :

« يا علاء الدين ، أنت كريم رغم فقرك · خذ هذه المرآة ، سترى فيها كل شيء الا ما كان خيرا صرفا » · واختفى الشيخ ·

خداها وردتان يانعتان ·

جيدها قضيب شمع ·

ثغرها رحيق مختوم ·

ـ مالك تنظر الى هكذا يا مولاى ؟

ـ أوه ، لا شيء ، واصلى ··· واصلى ···

« نظر (علاء الدين) فى المرآة فلم ير نفسه ، ونظر فرأى عوالم عجيبة :

رأى سمكة ذهبية فى بحر من زئبق ·

رأى مكتبة (شيراز) ذات المائة ألف مخطوط ·

رأى قصرا من بلور ومدارج من رخام ·

رأى الغد :

مسيح جريح يستمطر اللعنة فى بلد بعيد ، فأغلق عينيه وتنهد ·

تنهد (شهريار) ·

« كان (علاء الدين) يا مولاى خيرا صرفا فما اضمرته المرأة ·

وكان يحب إحدى الفلاحات القادمات من السكك ·

كانت ، يا مولاى ، فاتنة ، ساحرة ، تنبع الخمر من كل عضو من أعضائها ، فتفيض الدهشة وتشع الاعجاب ٠

وكانت تأتى ، يوم السوق ، بثمرة عجيبة لا نعـرفها فى بلدنا ويقال إنها تنبت فى المقابر » ٠

فتعوذ (شهريار) وكبر :

ــ وما اسم هذه الثمرة يا (دنيا زاد) ٠

ــ برتقال ، يا مولاى ، ويجمع العارفون على لذة طعمها وطيب رائحتها ٠

صدرها قبة من رخام ٠

خصرها تمثال ذهبى ٠

غلالتها موجة ألوان ٠

« كان (علاء الدين) يحب هذه الفتاة حبا يائسا لأنه لا يملك عليها سلطانا ، ولا يقدرعلى مكاشفتها بحبه » ٠

ــ مسكين ٠

« كان يا مولاى ، لا يملك درهما ولا دانقا ٠ فعزم أمرا ، وحمل مرآته يوم السوق ، ووقف ينتظر « سحرا » وكان هذا اسمها الذى يعرفها النـاس به حتى باعت كل البرتقال فى سلتها وبقيت لها برتقالة واحدة ٠

فتقـــدم :

ــ أتريد أن تشترى هذه البرتقالة ؟ إنها بدرهم ٠

وضحكت كماء الغدير ٠

فتلعثم (علاء الدين) :

ــ بل أريد ٠٠٠

ــ هى إذن بدينار !

ورمتها فى الهواء ضاحكة ، وعدت برشاقة ٠

فجرى وراءها • وبدأ السباق تحت سماء ربيع • ولحق بها لاهثا ، عند حافة الغابة •

وكانت تضحك وتضحك ، فتسربت اليه العدوى فأخذ يضحك ويضحك • وبعد مدة ، ارتميا على العشب فى جهد •

ـ إنى أردت أن أهديك قصدى أن أبيعك ، بل أهديك هذا ••• هذا الشىء •

ـ يا لله ! ما أجمل هذه المرآة ! كأنها •••

وقاطعها (علاء الدين) بدهشة •

انظرى ! هذه أنت !

وأخفى وجهه بين يديه •

إذن ففيها شر ، بل هى شر ، وإلا لما ظهرت فى المرآة واضحة التقاطيع ، بينة الملامح •

ـ شكرا ! ما اصابك ؟ كأنك مريض •

ـ كلا •

ونهض بتثاقل ، وانصرف •

ـ انتظر ! خذ مرآتك !•

ـ إنها هدية •

فلحقت به ، وفتحت كفه ووضعت فيها شيئا ، ثم قبلته فى جبينه ، وانصرفت •

فتح كفه ، ونظر ، فوجد برتقالة من ذهب » •

أمسك (شهريار) بيد (دنيا زاد) ، وأجلسها بجانبه :

ـ يا خادم ، اذبح الديك ، وأسدل الستائر السوداء على النوافذ !

واصلى حديثك يا (دنيا زاد) •

رياض المرزوقى

فهــــرس تحليــــل
للمجلـد الاول مـن مجلـة « قصـص »

I ـ المـوضـوعـــات

11 ـ الكتــاب

فهـــــرست

العدد ـ 5 ـ اكتوبر 1967 ـ السنة الثالثة

الشركة التونسية لفنون الرسم

1967

– بيانات ادارية –

- تصدر **قصص** موقتا مرة كل ثلاثة أشهر ·
- المراسلات تكـون باسـم مجلة **قصص** 70 شـارع الحرية – تونس أو نادى القصة (النادى الثقافى أبو القـاسم الشـابى) الوردية تونس ·
- صاحب الامتيـاز ورئيس التحرير المسؤول : محمد العروسى المطوى ·
- لا ترد المراسلات نشرت أم لم تنشر ·
- اشتـراك عـادى داخـل الجمهـــوريـة : 700،0د سبعمائة مليم ·

– اشتراك تشجيعى : 500،1د دينار وخمسمائة مليم ·

– اشتراك خارج الجمهورية : دينـار أو مـا يعـادلـه (مع مصاريف الارسال)·

– يرسل معلـوم الاشتراك حوالة بريدية باسم الدار التـونسية للنشـــر 70 شارع الحـرية – تونس أو يصب فى حســابهـا الجارى بمركز الصكـوك **البريدية** 29 – 772 CCP أو حسـابهـا بالشــركة التونسية للبنـك المركـز الاصـــلى 7/ 01.157.866 STB

200 م. ت.